

فايز نجيب إسكندر

بنيامين الأول

البطريك الثامن والثلاثون

بين نهاية العصر البيزنطى وبداية الفتح الإسلامى لمصر

(٦٦٢-٦٢٣م)

وقفت مصر وراء المسيحية منذ فجر ظهورها فى أخريات التاريخ القديم ، إذ وجدت فيها حقلاً خصباً ترعرعت فيه غرسها بسرعة فائقة. ولم يجد المصريون فى اعتناق الدين الجديد صعوبة كبيرة على عقولهم وأفهامهم ، بل وجدوا فى المسيحية سموً على أفكارهم الدينية القديمة التى ألفوها. وهكذا تغلغت العقيدة الجديدة تغلغلاً سريعاً فى جميع الأوساط المصرية ، هذا بينما كانت الإمبراطورية الرومانية القديمة تمر آنذاك بمرحلة الاحتضار ، بسبب الأزمات العديدة المتعددة التى كان عليها مواجهتها من سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية وفكرية ودينية وغيرها. وفى غضون ذلك ، واجه مسيحيو مصر بثبات بالغ وعزيمة قوية كافة ألوان الاضطهاد على يد أباطرة الرومان ، الذين حاولوا القضاء على الدين الجديد وإبادة معتقيه ، فنال الآلاف من المصريين شرف الشهادة. وإمعاناً فى التحدى ، سمى الأقباط التقويم المصرى " بتقويم الشهداء "؛ إذ اتخذت الكنيسة القبطية بداية حكم دقلديانوس (٣٠٥-٢٨٤م) وهى سنة ٢٨٤م بداية لهذا التأريخ. وهكذا أكتوى المصريون بنار الاضطهاد وكافة ألوان التعذيب على أيدي الأباطرة الرومان. وتعد هذه المرحلة الأولى ، وتتمثل فى مرحلة اضطهاد الأغلبية الوثنية للأقلية المسيحية. وحظى الوثنيون آنذاك بمساندة ومناصرة اليهود لهم والإمبراطور والإمبراطورية الرومانية. وقد شغلت تلك المرحلة القرون الثلاثة الأولى من المسيحية حتى نهاية عهد دقلديانوس.

ويعد اعتراف قسطنطين الكبير (٣٠٦-٣٣٧م) سنة ٣١٣م. بالمسيحية كإحدى الديانات المصرح بممارسة شعائرها الدينية فى ربوع إمبراطوريته ، بدأت المرحلة الثانية ؛ إذ جاء دور الأغلبية المسيحية لتضطهد الأقلية الوثنية.

ولكن مشاكل المسيحية لم تنته تماما بزوال الوثنية وزوال عصر الاضطهادات ، إذ سرعان ما ابتدأ الانقسام الدينى بين المسيحيين أنفسهم ، ومن ثم بدأت المرحلة الثالثة حيث أخذ المسيحيون يضطهدون بعضهم بعضا بسبب الخلافات المذهبية ، واندلاع الشقاق الضارى بين علماء اللاهوت فى المجامع المسكونية. وبدأت أعراض الانقسام تظهر بينهم ، وغرست بذور المذاهب المتعددة فى العالم المسيحى على أثر ذلك. وقد حاول أباطرة الإمبراطورية البيزنطية القضاء على هذا الانقسام المذهبى ، إلا أن اتساع شقة الخلاف بين الشعوب المسيحية الخاضعة للسيادة البيزنطية . ومن بينها مصر . كان ليس فقط بسبب اختلاف التفسير اللاهوتى ، بل أيضا لظهور عوامل التفرقة السياسية ، والضغوطات الاقتصادية ، وسعى تلك الشعوب للاستقلال ، وظهور قوى جديدة لها وزنها على مسرح الأحداث التاريخية ؛ كل ذلك أدى بالتالى إلى إخفاق أباطرة الإمبراطورية البيزنطية فى مهمة إعادة توحيد ربوع إمبراطوريتهم ، بل وتمزقها فى نهاية المطاف إلى أشلاء. ولقد عايش تلك الأحداث الانتقالية الجارفة فى كافة مناحى الحياة المصرية الأنبا بنيامين الأول (٦٢٣ - ٦٦٢ م) ، إذ عاصر حقبة الاحتلال الفارسى لمصر ، وعودتها إلى الحكم البيزنطى من جديد ، ثم مرحلة إنهاء السيادة البيزنطية ، وانتقال مصر إلى أيدي الفاتحين المسلمين المتسامحين.

والبطريك^(١) بينامين ولد فى قرية " بيرشوط "^(٢) وهى حاليا كفر مساعد التابعة لإيتاى

(١) " بطرك " و " بطريك " وجمعها " بطاركة " حسب تهجئة القلقشندى لهذا اللقب. أنظر: صح الأعشى فى صناعة الإنشا . القاهرة ١٩١٣ . ١٩٢٠ م . ج ٥ ، ص ٤٧٢ ، ج ٨ ، ص ٤٢ .

(٢) فى هنرى مونيه HENRI MUNIER " فرشوط " FARSHOUT ، وذكر أن بنيامين تولى كرسى البطريكية خلفاً لاندرونيقوس ANDRONICUS سنة ٦٢٤ م ، هذا بينما كان البطريك للمكانى المدعو يوحنا المتصدق JEAN L'AUMONIER . قد لاذ بالفرار من مصر بعيد الغزو الفارسى لها ، وتوفى فيما بعد فى جزيرة قبرص. أنظر:

HISTOIRE DE LA NATION EGYPTIENNE, PREMIÈRE PARTIE, L'EGYPTE BYZATINE DE DIOCLÉTIEN À LA CONQUÊTE ARABE, PARIS, 1933, P. 68.

فى حين ذكر الأنا يوساب ، أسقف فوة ، وهو من مؤرخى القرن الثالث عشر الميلادى فى مصدره " تاريخ الآباء البطاركة " أن " بنيامين بن اناس كان من الموسرين من أهل البحيرة ، وكان من بلد تدعى بيرشوط " . (أنظر:

البارود بالبحيرة^(١) وهو بذلك أول بطريرك قبطى غير سكندرى. وكان سليل عائلة تقية ، اشتهرت بالثروة الكثيرة والنفوذ الواسع، مما ساعده فيما بعد على القيام بأعمال عظيمة لخير الكنيسة المصرية، وجعل له شهرة فائقة^(٢).

تاريخ الآباء البطاركة . نشر الراهب صموئيل السريانى ونييه كامل . القاهرة ١٩٤٢ . ص ٤٨ . أنظر أيضاً: ساويرس بن المقفع: تاريخ البطاركة . نشر الأنبا صموئيل . القاهرة ١٩٩٩ . ج ١ ، ص ٨٤) وقد نشر رينيه باسيه RENÉ BESSET مصدراً بعنوان " السنكسار القبطى اليعقوبى " إعتد فى إعداده على مخطوطين الأولى تعود الى القرن الرابع عشر الميلادى والثانية الى القرن السادس عشر جاء فيه أن " هذا الأب [أى بنيامين البطريرك] كان من أهل فرشوط " كما جاء فى هنرى مونييه. وكاد الباحث ينزلق الى الخطأ بترجيح " فرشوط " على " بيرشوط " الذى ذكرها الأنبا يوساب وساويرس بن المقفع. إلا أن التدقيق فى موقع فرشوط حسب ما أورده البغدادي فى أنها قرية كبيرة على شاطئ غربى النيل من الصعيد وليس البحيرة كما أجمعت كافة المصادر جعلنا نؤكد " بيرشوط " على " فرشوط ". (أنظر البغدادي: مراد الإطلاح على أسماء الأمكنة والنقاع . تحقيق على محمد الجاوى . القاهرة ١٩٥٥ . ج ٣ ، ص ١٠٢٨). وقد جاء فى قاموس آباء الكنيسة وقديسيها . مادة البابا بنيامين الأول ٣٨ ، ص ١٧٣ " أنه ولد فى قرية بيرشوط، وهى حالياً كفر مساعد، التابعة لإبتائى البارود بالبحيرة، وقد أنفرد القمص تادرس يعقوب الملطى بذلك التحديد الدقيق دون غيره من المصادر والمراجع. والملاحظ أن السنكسار الذى شارك فى وضعه كل من الأنبا بطرس الجميل، والأنبا ميخائيل والأنبا يوحنا جاء فيه " كان هذا الأب [أى بنيامين] من البحيرة من بلدة برشوط [وصحتها بيرشوط] وكان من أسرة غنية" أنظر: كتاب السنكسار القاهرة ١٩٧٨ . ج ١ ، ص ٢٤٩ وجاء فى أبى المكارم أن بنيامين "... من أهل البحيرة من ضيعة بيرسوط [وصححت فى حاشية رقم ٢ إلى برشوط، نقلاً عن ابن دقماق] الذى ذكر أنها من الأعمال البحرية". أنظر: تاريخ الكنائس والأديرة فى القرن ١٢ بالوجه البحرى . إعداد الأنبا صموئيل . القاهرة ١٩٩٩ م . ج ١ ، ص ١٣٠ وحاشية رقم ٢ .

(١) القمص تادرس يعقوب ملطى: قاموس آباء الكنيسة وقديسيها [ب ، ت ، ث] . القاهرة ١٩٩٥ . مادة البابا بنيامين الأول ٣٨ ، ص ١٧٣ .

(٢) ساويرس بن المقفع: ج ١ ، ص ٨٤ ، الأنبا يوساب: ص ٤٨ . أنظر أيضاً: تادرس يعقوب الملطى: ص ١٧٣ وكذلك:

MASPERO, J. HISTOIRE DES PATRIARCHES D'ALEXANDRIE DEPUIS LA MORT DE L'EMPEREUR ANASTASE JUSQU'À LA RECONCILIATION DES ÉGLISES JACOBITES (518-616), PARIS, 1923, P. 25.

ولما بلغ بنيامين سن الرشد ، باع كل ماله ، وترك أهله وعشيرته ، والتحق راهبا بدير " قنوبوس " (١) جهة أبي قير ، إلى الشمال الشرقي من العاصمة الإسكندرية (٢) ، وكان هذا الدير وسط بستان من النخيل على مقربة من شاطئ البحر المتوسط ، ويعد من الأديرة القليلة التي لم يهدمها الفرس على عروشها ، وإن كانت لم تسلم من التخريب ، ومن النهب والسلب (٣) . وهناك تتلمذ بضع سنين على يدى ناسك شيخ يدعى ثيوناس THEONAS فحظى برعاية أبيه الروحي . وعكف آنذاك على دراسة الكتاب المقدس ، حتى برع فى علم اللاهوت وبلغ درجة الكمال المسيحي (٤) . كذلك اشتهر بشدة التقوى والبراعة سعيا وراء بلوغ الكمال الروحي الذى تطلع نحوه بقلبه حتى أنه كان يقوم الليل فى العبادة فى كنسية الدير . وبذ معلميه فى العلم والفضيلة والنقش . ولكثرة إعجاب معلمه به ، اصطحبه معه ليتوكأ إليه خلال سفره إلى الإسكندرية (٥) . ولما انتهيا من تأدية المهمة التى جاء إلى المدينة بسببها ، ذهبوا لزيارة البابا

(١) فى " ايسوذورس " ترهب فى " ديرفريوس " بالقرب من إسكندرية . أنظر : الخريدة النفيسة فى تاريخ الكنيسة . القاهرة ١٩٩١ م . ج ٢ ، ص ٧٦ . وصحة ذلك ما أثبتناه .

(٢) فى " رينية باسيه " ترهب من صغره عند رجل قديس يسمى تاونا فى دير غربى الإسكندرية " أنظر السنكسار . القبطى اليعقوبى ، ج ٢ ، ص ١٤٤ . وصحة ذلك الى الشمال الشرقى من الإسكندرية " .

(٣) ساويرس ، ج ١ ، ص ٨٤ ، الأنبا يوساب : ص ٤٨ ، الأنبا بطرس الجميل : كتاب السنكسار ، ج ١ ، ص ٢٤٩ . أنظر أيضا : تادرس يعقوب : ص ١٧٣ . وكذلك : MASPERO, P.25 .

(٤) من كتابات البطريرك بنيامين عظة طويلة بعنوان " على العرس بقانا الجليل " ألقاها بالقبطية الصعيدية على الأرجح ، ولكنها محفوظة بالقبطية البحرية . كذلك يوجد له جزء من " مديح للأنبا شنودة " والجدير بالذكر أن رسالته الرعوية أصولها مفقودة ، ومع ذلك ، فقد جمع خمس عشرة رسالة وأخرجها فى شكل مجلد . وفى حربه ضد الهرطقة ، أفرد "رسالته الفصحية لسنة ٦٤٢م " ترجمت الى اللغة العربية ، للتفاصيل أنظر : شنودة ماهر إسحق : الأدب القبطى . اللهجات القبطية وأثارها الأدبية . القاهرة ١٩٩٨ م . ص ٨٠ .

(٥) السنكسار القبطى اليعقوبى : ج ٢ ، ص ١٤٤ ، ساويرس بن المقفع : ج ١ ، ص ٨٤ : الأنبا يوساب : ص ٤ . أنظر أيضا : تادرس يعقوب ملطى : ص ١٧٤ : كتاب السنكسار : ج ١ ، ص ٢٤٩ . وكذلك :

HARDY, E. R., CHRISTIAN EGYPT CHURCH AND PEOPLE, NEW YORK, (1951), P. 183.

أندرونيكوس^(١) (٦١٦-٦٢٣م) ANDRONICUS قبل العودة إلى ديرهما في أبي قير ، في أقصى الشمال الشرقي من العاصمة ، حيث قدمه ثيونس للبطريرك ، فأعجب به لما كان عليه بنيامين من القدرة وقوة النفس والشخصية والعلم. فاستبقاه عنده ، لأنه "رأى يد الله عليه" حسب قول المصادر الكنسية. واضطر ثيونس إلى العودة وحده إلى الدير. عقب ذلك رسمه خليفة مار مرقس قسا ، فانتظم في سلك الكهنوت ، ثم اختاره تلميذاً له وسكرتيراً خاصاً ، فكان أمين أسرارهِ ، وموضع ثقته. واشتهر آنذاك باستقامته وغيثته وتفانيه في أداء عمله بإتقان بالغ وفي صبر وسكون. وساعد البابا في تدبير أمور الكنيسة وولاية الشعب المصري في أحلك الأوقات ، حين اشتدت وطأة الاحتلال الفارسي لمصر ، فأدى القس بنيامين عمله الإداري والديني على ما يرام ، فعينه وكيلا له. فزاد مقامه في أعين البابا ورجال الإكليروس وأعيان الأمة المصرية. ولم يبق في خدمة البطريرك أندرونيكوس إلا شهورا ، إذ لما دنت وفاته وذلك في أوائل سنة ٦٢٣م ، أوصى أن يكون هو خليفته وأشار على شعبه بذلك الاختيار ، فاحترمت الكنيسة المصرية إرادته.

وصادف اختياره لرئاسة الكرسي الرسولي هوى في قلوب الناس فحظى بالإجماع ، إذ كان محبوبا من الشعب المصري ، وكان وقت سيامته في الخامسة والثلاثين من عمره. وتم

(١) كان "أندرونيكوس" ANDRONICUS شماساً من أسرة ذات نفوذ سياسي لكون أبين عمه يشغل وظيفة المقدم في الديوان الإمبراطوري بالإسكندرية. إتسم بالتواضع والصلوح في العلوم الدينية والمدنية، لذلك رقى إلى السدة المرقسية وأصبح البطريرك السابع والثلاثين في عهد بطريركيته ، قام الفرس بغزو مصر، وعانوا في البلاد فساداً ، ونشروا الرعب والفرع والخراب والدمار والتخريب في كل مكان ، وأقاموا المذابح للمصريين الأبرياء ، وتدخل الملك كسرى في شئون الكنيسة رغم كونه من عباد الشمس ، بل وحاول فرض النسطورية عليهم. وانتهى الأمر بتمكن الإمبراطور البيزنطي من إلحاق شر الهزائم بهم. للتفاصيل أنظر أبو المكارم: تاريخ الكنائس والأديرة . نشر الأثينا صموئيل . القاهرة ١٩٩٩ . ج ١ ، ص ١١٤ ؛ الأثينا يوساب : ص ٤٨ ، ساويرس: ج ١ ، ص ٨٢-٨٤ ، السنكسار القبطي اليقوي: ج ٢، ص ١٤٣ . ١٤٤ . أنظر أيضا كتاب السنكسار: ج ١ ، ص ٢٤٨ - ٢٤٩ ؛ إيريس حبيب المصري: السنكسار الجديد . القاهرة ١٩٨٧م . ج ١، ص ٣١٥ - ٣١٦ . وكذلك:

MASPERO, P. 357, GUETTÉE, V., HISTOIRE DE L'ÉGLISE, PARIS 1806 T.II, P.419.

الاحتفال برسامته سنة ٦٢٣ م ، فى كاتدرائية القديس مرقس الرسول^(١) بمدينة الإسكندرية، فأصبح البابا الإسكندري الثامن والثلاثون. وظل نحو أربعة عقود يوجه إدارة الكنيسة المصرية فى ظل تقلبات وأحداث سياسية ودينية جارفة ، وواجه آنذاك أحوالاً وظروفاً بالغة التغيير. إذ إن مدة بطريركيته كانت أكثر عهد فى تاريخ مسيحي مصر تقلباً وأعظمه أحداثاً ، واشتهر بما كان له على شعبه من سلطان قوى ونفوذ كبير ، وبما بذله من جهد صادق لإعادة تنظيم الكنيسة المصرية. وكانت حياته سلسلة أوجاع وآلام^(٢).

كان بنيامين شديداً فى الحق ، ساهراً على بيعته ورجال كهنوته ، لا يتساهل فى الأمور الدينية ، ولا يتسامح فى الحرص على الآداب والنظام ؛ فشرع منذ تبوئه الكرسي البطريركى ، فأخذ رجال الكهنوت بالشدة إذا تعدوا الحدود اللاتفة بكرامتهم ووظيفتهم الدينية. وكان كثير منهم متهاونين مستهترين ، وأخذ يقضى على الفساد الذى تفشى آنذاك وشمل كثيراً من الشئون ، حتى أن الأساقفة فشلوا فى إصلاح تلك الأحوال بسبب الحرب ومشاغلتها وما يصاحبها من تدهور

(١) كانت " كنيسة المرقسية " نسبة الى القديس مرقس أول كنيسة تشيد فى الإسكندرية وذلك فى القرن الأول الميلادى قبل استشهاده مرقس بسنوات قليلة شيدت فى منطقة تعرف بأسم "بوكاليا" أو " بوكاليس " بالقرب من الميناء الشرقى وأعتبر مرقس أول بطريرك لها. والكنيسة لا تزال الى اليوم تحمل اسم مؤسسها (التفاصيل أنظر: CHENEAU, LES SAINTS D'EGYPTE, T.I, P.234, 263. أنظر أيضاً: بتشر أ.ل.: تاريخ الأمة القبطية . تعريب إسكندر تادرس . القاهرة ١٩٠٠. ج١ ، ص ٢٧) هذا بينما يذكر جان جاك باليا أن " كنيسة ثيوناس " هى اول كنيسة تم تشييدها فى الإسكندرية ، وأن مسيحي الإسكندرية كانوا قبل ذلك يقيمون شعائهم الدينية فى الخفاء، خاصة فى المغاور والكهوف والمقابر . والرأى الأول هو الأصوب. أنظر:

PALLIA, J., ALEXANDRIE AUX PREMIERS SIÈCLES DU CHRISTIANISME, IN SOCIÉTÉ ARCHEOLOGIQUE D' ALEXANDRIE, ALEXANDRIE, 1964, P. 19.

(٢) ساويرس: ج١ ، ص ٨٤ ، السنكسار القبطى اليعقوبى: ج ٢ ، ص ١٤٤ ، أنظر أيضاً: إيسيدورس: الخريدة النفيسة فى تاريخ الكنيسة ، ج ٢ ، ص ٧٦ ، كامل صالح وفريد كامل: تاريخ الأمة القبطية . القاهرة ٢٠٠٠ . ص ٤٦ وكذلك:

MÉLINEAU, E., ETUDE SUR LE CHRISTIANISME EN EGYPTÉ AU SEPTIÈME SIÈCLE, PARIS, 1887, PP. 39-40.

وفساد فى كافة مناحى الحياة. وقد سبق له قبل توليه الرئاسة أن زار " بابلون " (١)
،BABYLON

فلما اعتلى الكرسي البطريركي أرسل منشوراً رعوياً إلى جميع أساقفة مصر (٢) جاء فيه:

"... إن كل من كان مستهترا أو مملوا بالأعمال الرديئة ، فليحرم نجس جسده الذى هو هيكل الله. وكل من اعتدى على عذراء ، أو دنس مضجعه فى فراش غيره فليحرم. وإن القسوس والشمامسة (٣) الذين هم مرشدون والذين استبدلوا البركة بالخزى والعار ، إذا كانوا فسقوا قبل رسامتهم ، فليطلق سبيلهم أحرارا ، على أن يتوبوا ولا يعودوا يخطئون. فإذا عادوا إلى نجاستهم الأولى ولم يخشوا بأس ملاك الهيكل ولا القطيع الذى يرعونه ، فلتتجمع رؤوسهم كل خطاياهم التى من قبل والتي من بعد كملكة نحل

(١) يقع " حصن بابلون " CASTRUM DE BABYLONE جنوب القاهرة فى مصر القديمة. ومنذ بزوغ فجر المسيحية ، شيدت به العديد من الكنائس وراء أسواره بغية حمايتها ، إذ كان سمك أسوار الحصن ثمانية عشر قدماً. شيد من الحجارة والأجر ، وكان محيط الأسوار مربع الشكل. وفى الجانبين الجنوبي والشرقى أربعة أبراج. وقد أطلق عليه العرب أسم " قصر الشمع " إذ كان يوقد فيه الشمع فى رأس كل سنة ، وحين انتقال الشمس من برج الى آخر فى رأس كل شهر. وقد اختلفت المصادر التاريخية فى سبب تسميته حصن بابلون. للتفاصيل أنظر: أبو المكارم: ج ٢ ، ص ٢٥ ، ٢٩ ، ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب. تحقيق عبد المنعم عامر . القاهرة ١٩٦١ . ص ٥٢ ، ٨٤ حاشية رقم ١. وكذلك:

DIEHL, L'AFRIQUE BYZANTINE, PARIS, 1896, P. 547.

(2) AMÉLINEAU, M. E., FRAGMENTS COPTES POUR SERVIR À L'HISTOIRE DE LA CONQUÊTE DE L'EGYPTE PAR LES ARABES, IN. J.A., PARIS, 1888,t.XI, PP. 368-371.

وبحث " أميلينو " المتخصص فى تاريخ مصر فى العصر البيزنطى عنوانه " قطع قبطية تستجلى تاريخ فتح العرب لمصر " ، قامت بنشره المجلة الآسيوية والبحث قائم على مخطوطات قبطية أورد نصها ، ثم ترجمها الى اللغة الفرنسية. وختم بحثه بتفحص شخصية المقوقس. أنظر: AMÉLINEAU, PP. 361-410.

(٣) " الشماسية " أحد أضلاع المثلث الكهنوتى منذ العهد الرسولى. فالضلع الأول هو الأسقفية ، ويليه ضلع القسيسية ويكمله ضلع الشماسية. والشماسى كلمة سريانية معناها الخادم ، نظراً لأن درجته أقل درجات الكهنوت الثلاث. وهو تابع للأسقف والقسيس ، وعون ومساعد وخادم فى الكنيسة. للتفاصيل أنظر: يسى عبد السيد: الرتب الكهنوتية فى الكنيسة القبطية ، ص ٩٣ - ١٣٨ بحث منشور فى رسالة مارميثا السادسة عشر فى الدراسات القبطية ، ج ٢ ، الإسكندرية ١٩٩٨م.

العسل ،^(١) وليبعدوا عن الكهنوت ، وأما إذا أدركوا الحقيقة بواسطة رجال عقلاء وأمناء مختارين من بين الشعب وندموا على أعمالهم فليجبروا فقط على عدم حمل ثوب الكهنوت. ومع كل ما قلته بأن يقوم الأسقف بالتحري عن حالة الإكليريكين مرة كل شهر ، ولاسيما على الحديثين منهم سالذين لم تمض على رسامتهم عشر سنوات ، وأن يفحصوا أعمالهم ليتأكدوا من حسن سيرتهم ، فإذا لم يوجد أحد من هذا النوع^(٢) الذى يجب خلاصه من هذه الأعمال، فليكونوا أحرارا. وكونوا فى سلام الرب"^(٣).

وقد أرسل البطريرك بنيامين هذه الرسالة إلى جميع الأساقفة قبل إقباله عليهم ، ولقد حققت من ذلك أنه حقيقة رئيس أساقفته. وقد فرز عددا من الإكليريكين فى هذه الأبرشية ، الذين لم يتحروا عن إكليروسهم منذ رسامتهم^(٤) .

مما تقدم ، يتضح جليا أنه كان حقاً كبير أساقفة ، يشعر بخطورة مركزه ، ومقدار المسئولية الكبرى الملقاة على عاتقه. كما كان يقدر تبعات الكرسي الذى اعتلاه ، وبذل قصارى جهده لتطهير الكنيسة المصرية من المارقين ، كما ظهر جليا من حكم النفي الذى أصدره على بعض رجال الكنيسة فى إقليم بابليون.

ولم يكتف بنيامين بذلك ، بل أعقبه بزيارة هذا الإقليم ليطمئن بنفسه على أحوال الكنيسة فيه. فإنه عندما وصله سار على قدميه داخل بابليون BABYLONE بصحبة أنبا مينا APA MINA أسقف حصن بابليون CASTRUM DE BABYLONE وأنبا بيليهيب PILIHU أسقف حلوان وجمع كثيراً من الشعب ، وذهب بهم إلى رجل اشتهر بالعصيان ليحاسبه على جرم ارتكبه. ولقد وردت القصة كاملة فى المخطوطات القبطية السابق ذكرها والتي ترجمها أميلينو AMELINEAU إلى الفرنسية بعنوان " قطع قبطية تستجلى تاريخ فتح العرب لمصر"^(٥) وهذا نصها:

(1) AMÉLINEAU, 2^e FRAGMENTS, P. 369.

(2) AMÉLINEAU, P. 370.

(3) AMÉLINEAU, P. 371.

(4) AMÉLINEAU, P. 370-371.

(5) AMÉLINEAU, P. 371-378.

"... ومع كل هذا ، فهو (أى البابا بنيامين) لم ينس الإمرأة الأرملة ، فإنه مدحها أمام كل أحد. وبعد ذلك بحث فى المدينة عن البناء الذى^(١) قتل ابن الأرملة وقال: " هل هو حى يرزق وأين يسكن ؟" ثم قام وسار على قدميه مع جمع كبير ومعه بيلييهب PILIHU أسقف حلوان وأنبا مينا أسقف حصن بابليون لأنهما لما علما بانحداره من الإسكندرية قاصدا الجنوب، حضرا عنده لنوال بركته.

وبعد ذلك وصل إلى مسكن فيليا PHELIA البناء فوجده جالسا يأكل بعض الأطعمة. فنادى عليه قائلا: " هيه. أنت يا معلم! " فارتبك فيليا ولبث فاقدًا حواسه. فقال له البابا: " يا هيرودس HERODE الجديد ، كم أخذت فى أمر ابن الأرملة الذى عذبتة؟ يا يهوذا JUDAS الجديد^(٢) الذى أخذ أجره تسليم المسيح. أين ابن الأرملة التى عهدت إليك به؟ أين وديعة الأرملة المحفوظة لها؟ إنى أرى أن قاضى الظلم يفضل عنك كثيرا " ثم قال: " إنى أنصف هذه الأرملة حتى لا تزعجنى مرة أخرى " فأقضى لها بالعدل. فلماذا أنت أيضا لم تفكر فى أن هذه الأرملة ليس لها عزاء فى الدنيا إلا ابنها الذى ليس له أخ ولا أخت حتى تجد فيها عزاء وسلوى؟ أين وضعت مخافة الله ، أنت الذى سلسلته وهو يبكى أمامك شاخصا بنظره إليك؟ فإنك بلا شك فى هذه البرهة جعلت من نفسك ملكا وهو كان ينظر إليك كوالد كأن^(٣) يلتمس منك تعليمه وإعداده ليكون معلما يوما ما. إنك وضعت تحت أساسات الحوض وبينيت عليه ، كما أن الرب أسقط روحك تحت أبواب الجحيم. فإذا كنت تبغضه فلا تقتله ، بل كنت تسلمه إلى وثنى أو بربرى أو إسماعيلى حتى كان يأخذه إلى بلد غريبة كما فعل إخوة يوسف الصديق بأخيهم لكنك أخذت الوحشية من رجال أفخيطوس EUCHITOS الذين أخذوا أولاد الأرملة وألقوهم مسلسلين إلى التنين ؛ ولكنهم لم يقتلوهم بأيديهم كما فعلت أنت. كيف أنت تأكل وهو جائع؟ وأنت تمرح على مرقد اليتيم وهو مدفون تحت أساس

(1) AMÉLINEAU, P. 371.

(2) AMÉLINEAU, P. 372.

(3) AMÉLINEAU, P. 373.

الحوض. فتأت على رأسك خطايا آباءك منذ السلالة الثالثة^(١). أيها الأسد والدب المفترس ، إنى قد وجدتكَ اليوم أنت الذى فقت هذه الحيوانات فى الوحشية. هل الأرض لا تتسع لك وله أيها الشرير قايين CAIN؟ فكن ولده فى العقوبة ، ورفيقه فى الجحيم. لقد أشبعت أمه الأرملة عويلا وبكاء ، فأشبع من العويل وصرير الأسنان. أقول لك أنت أيها الوحش المتوحش الذى قتل ابن الأرملة المسكينة المحتاجة ما هو الشر الذى عمله معك أبوه؟ فها هى والدته تعتنى بك لأنك يتيم وفقير ، وتتناول الطعام على مائدتها ، وتتمتع بملابسه وبكل ما يصرف من منزله. وفى الحقيقة إنك دقلديانوس DIOCLETIEN الجديد فى تصرفه مع الأسقف بسوتى PSOTI^(٢)، لأن أهل^(٣) بسوتى Psoti عملوا كل الطيبات مع دقلديانوس ، ولما صار ملكا جزاهم بقتل ولدهم القديس ومع ذلك فهناك فارق لأن دقلديانوس كان ملكا. ومن الذى أقامك أنت ملكا أو واليا أو دوقا؟ ومن أين استمدت السلطان على قتل الرجال؟ هل من يد ديقوس^(٤) DECIUS تسلمته؟ أو من يد دقلديانوس تسلمت الولاية؟ أو لم يكن ذلك من يد هيرودس HERODE الكبير؟ وها هو معى والى حلوان ! فقل لى من أعطاك

(1) AMÉLINEAU, P. 374.

(٢) قام الأنبا بسوتى PSOTI بالتبشير بالمسيحية فى الخمس مدن الغربية بليبيا ، وأقيم أسقا على مدينة بتولومايس فى عهد دقلديانوس (٣٠٥.٢٨٤م) ، فواجه اضطهاده للمسيحيين ، وانتهى أجله بأن أمسك جندى بسيفه وهوى على رقبته ، للتفاصيل أنظر: السنكسار الجديد، ج ١ ، ص ٦٤.٦٠.

(3) AMÉLINEAU, P. 375.

(٤) ولد مسيوس ديقوس DECIUS MESSIUS سنة ٢٠١م بالقرب من سرميوم SIRMIUM فى بانونيا PANNONIE ، وتولى عرش الإمبراطورية الرومانية على أكتاف جنوده سنة ٢٤٩م. وبعدها تمكن من إحراز انتصارات عديدة على القوط GOTHs الذين كانوا قد اجتاحوا الإمبراطورية. ولقى حتفه سنة ٢٥١م فى معركة ضد القوط فى تراقيا THRACE. ولقد أراد ديقوس أن يوقظ الروح الرومانية القديمة عن طريق استئصال شأفة المسيحية ، لذا أصدر مرسوماً يأمر فيه جميع حكام الأقاليم بضرورة إعادة ديانة الدولة الوثنية مهما كلفهم الأمر.

فشهدت مصر آنذاك اضطهادا من أشد الاضطهادات التى وقعت على المسيحيين المصريين. للتفاصيل أنظر:

BOUILLET, M. N., DICTIONNAIRE UNIVERSEL D'HISTOIRE ET DE GÉOGRAPHIE, PARIS, 1871, P. 505.

أنظر أيضا: فايز نجيب إسكندر وممدوح مغازى: تاريخ مصر فى العصر البيزنطى . القاهرة ٢٠٠١ . ص ٤٥ .

حق قتل رجل ؟ ولأى شر قتلته؟ هل لعنك؟ أو اتهمك؟ أو دنسك؟ فهو فى كل لحظة كان يدعوك يا أبى وكان يحمل لك العدة كالعبد لا لشيء ينتظره بل كان يعتبر نفسه أنه يعمل مع^(١) والده وهو لم يكمل السنة العاشرة ". ولما قال البابا بنيامين هذا الكلام أمام فيليا PHYLIA البناء ، غلق عليه باب المنزل. وكان كل واحد ينظر إليه ، وجميعهم ينوحون من تأثير الكلام الذى نطق به البابا فى شأن ابن الأرملة. ثم رفع البابا أيديه إلى الله تعالى وقال: " أرجوك يا الله أن تقبل صلاتى هذه بخصوص هذا الباب الذى أغلقته حتى لا يفتح قبل أن يفتح من جديد باب الجحيم. وكما قوضت حصون أريحا JERICHO ، اهدم منزل هذا الكافر عليه وعلى عائلته الملعونة كلها ؛ واقبض عليهم^(٢) لأنهم أكلوا ثمن ابن الأرملة ، واقض عليهم بأشر ميتة ". وبعد ما أتم البابا صلاته سمع صوتا رهيبا من السماء ، ونزلت نار صاعقة على المنزل كأنها ألقيت عليه من أحد الجيران ، فاشتعلت فيه من جهاته الأربعة ، وسقط على الأرض كما أسقط الشيطان منزل أيوب JOB على أولاده فلم يخلص منهم أحد. ولما حدث ذلك امتلأ الجمع خوفا وأحنوا ركبهم أمام البابا وأظهروا ندامتهم وتوبتهم ، واستولى على جميعهم الفزع والاضطراب الشديد ، لأن الحكم الذى نطق به نفذ فى الحال أمام أعينهم^(٣) ."

نستخلص من نص المخطوط السابق حرص البطريرك بنيامين على نشر العدل بين رعيته ، ومناصرة الضعيف فى مواجهة جبروت القوى ، وإحقاق الحق ليحل مكان الظلم فى عصر تقلبت فيه الأمور والأحوال رأسا على عقب بسبب تردى أحوال مصر الداخلية من دينية ، واقتصادية واجتماعية وأمنية ، تلك الأحوال التى كانت تسير من سيئ إلى أسوأ. هذا بينما كانت الأخطار الخارجية تتهدد البلاد.

وهكذا كانت مصر تمر آنذاك بأسوأ فتراتهما التاريخية وأكثرها خطورة ، إذ شهدت تلك الفترة اندلاع العديد من الثورات المفاجئة التى كانت بمثابة كوارث حلت بمصر. وزاد الطين

(1) AMÉLINEAU, P. 376.

(2) AMÉLINEAU, P. 377.

(3) AMÉLINEAU, P. 378.

بلية، اتساع هوة الانشقاق المذهبي بين المصريين وسادتهم البيزنطيين. وظهر بطريك الإسكندرية آنذاك فى المحيط الدينى والميدان السياسى ، وغدا الشخص الوحيد الذى يستطيع أن يصمد ضد سلطان الإمبراطور البيزنطى ومن يمثلونه. فالانشقاق القبطى هو مذهبى من حيث الحجة فقط. فالبطريك " ديوسقوروس " (٤٤٤-٤٥٤م) DIOSCORE ، بطل الأرثوذكسية وتلميذ كيرلس عمود الإيمان ، والملقب بـ " ثانى الفراعنة "^(١) والذى لا يذكر اسمه إلا مقرونا بمجمع خلقيدونية (أكتوبر ٤٥١م) ، كان يصرح دائما " إن البلاد لى أكثر مما هى للأباطرة ، وإنى أطالب بالسيادة على مصر ". ولم تقتر عزمته فى انتظار الفرصة طويلا ليخرج بهذا التصريح من حيز الكلام إلى حيز العمل ، وسار من تلاه من بطاركة . ومن بينهم بنيامين . على خطاه^(٢). وكان المصريون يطيعون ويؤمنون بأن طاعة بطاركتهم من طاعة الله. أما الإمبراطور ، فمهما يكن أمر طاعته القسرية ، فهى طاعة أرضية.

على أية حال ، حظى بنيامين بحب الجميع ، فكانوا يتلقونه فى كل مكان أفواجاً محاولين أن ينالوا منه البركات. هذا بينما حرص طوال بطريكته على تطهير الكنيسة من الفاسدين ، مجازيا كل مسئى على تصرفاته بدافع الغيرة على بيعته والشفقة على شعبه. وفى مواجهة الحوادث السياسية والدينية الجارفة التى كان بإمكانها أن تعصف بكيان الكنيسة المصرية ، عمل رئيسها الدينى على تجديد وحدتها ، محاولا بذلك أن يعيد إليها إطمئنانها واستقرارها.

ولقد قضى البابا بنيامين مدة خمس سنين فى ظل حكم الفرس فى الإسكندرية. فقد احتل الفرس مصر سنة ٦١٩م ، وسهل لهم ذلك ما بلغته من فوضى واضطراب ، وما عانتته من استبداد البيزنطيين وحرمان المصريين من ممارسة حقوقهم المدنية واختيار مذهبهم الدينى. رغم أن البطاركة الأقباط المونوفيزيين قد استراحوا من فرض بطاركة ملكانيين من قبل الإمبراطورية البيزنطية لا هم لهم إلا اضطهاد أتباع الكنيسة المصرية ، إلا أن الفرس خربوا البلاد طولا

(1) ROUILLARD, G., L'ADMINISTRATION CIVILE DE L'EGYPTE BYZANTINE, PARIS, 1928, P. 230

(2) ROUILLARD, PP. 230-231; MASPERO, PP. 62-63.

وعرضاً ، ونهبوها وحطموا الكنائس والأديرة ، ولم يتورعوا عن إقامة المذابح للمصريين وقد أورد تفاصيل ذلك السنكسارات القبطية القريية من الأحداث.^(١)

ولقد عاصر البابا بنيامين عملية رحيل الفرس عن مصر سنة ٦٢٩م ، شاهدتهم يبرحون الديار المصرية ويغادرون عاصمتها الإسكندرية من بابها الشرقي بعدما تغلب عليهم الإمبراطور البيزنطي هرقل. ثم عاد إلى بلادهم الأسرى المصريون الذين وقعوا في أيدي الفرس.^(٢) وكان

(١) " السنكسار " SYNAXARE أو " السنكسارى " جمعها " السنكسارات " وهى كلمة من أصل يونانى وتعنى " جامع " أو " مجموعة ". وبعد " السنكسار القبطى " أهم المصادر التاريخية القبطية ، ويحوى السنكسار سير القديسين والشهداء موزعة على أيام السنة القبطية ، إضافة الى بعض أقوال آباء الكنيسة. وأشتهر يوليوس الأفهيسى . وهو من أفهص ، مركز الفشن محافظة المنيا . بصيته الواسع ، بكتابه الكثير من سير الشهداء وكان معاصراً لدقلديانوس (٢٨٤-٣٠٥م) وقسطنطين الكبير (ت ٣٣٧م). وقد أكمل " السنكسار القبطى " الذى وضعه يوليوس ، بطرس الملقب بالجميل أسقف مليج ، وهو أنبا بطرس ساويرس الجميل الذى عاش فى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى وأوائل القرن الثالث عشر. وبعد ذلك ، قام ميخائيل أسقف أتريب ومليج بإصدار نسخة أخرى من السنكسار من تأليفه ، وهى مؤرخة فى النسخة الأثيوبية (١٢٤٦-١٢٤٧م) ، وتشير الى إشتراك آخرين معه فى التأليف ، خاصة يوحنا أسقف البرلس. للتفاصيل أنظر:

CHENEAU D'ORLEANS, P., LES SAINTS D'EGYPTE, JERUSALEM, P, 1923, t. II P. 268, THE COPTIC ENCYCLOPEDIA, ED. ATIYA. A. S., 8 VOLS, NEW YORK, 1991, SEE VOL. II. P. 431.VOL V, P. 1626.

نشر هذا المصدر بعنوان " كتاب السنسكار " فى ثلاثة أجزاء . القاهرة ١٩٧٨م وقد اعتمدنا عليه فى إعداد البحث. وقد سبق أن ذكرنا فى حاشية رقم ١ فى مستهل البحث أن رينيه باسيه RENÉ BESSET نشر مصدراً بعنوان " السنسكار القبطى اليعقوبى " ، أتمد فى إعداده على مخطوطين عربيين نقلهما الى الفرنسية بعنوان:

LE SYNAXARE ARABE-JACOBITE, TEXTE ARABE, PUBLIÉ, TRADUIT ET ANNOTÉ PAR RENÉ BESSET, IN PATROLOGIA ORIENTALIS, t. VI, PARIS, 1922.

وقد نشر هذا المصدر بالعربية فى ثلاثة أجزاء الأنبا صموئيل بعنوان " السنكسار القبطى اليعقوبى " لرنيه باسيه . القاهرة ١٩٩٩م ، اعتمدنا عليه فى إعداد بحثنا. كذلك اعتمدنا على مرجع من إعداد إيريس حبيب المصرى فى ثلاثة أجزاء بعنوان " السنكسار الجديد " . القاهرة ١٩٨٧م.

(٢) عن تفاصيل الغزو الفارسى لمصر (وليس الفتح الفارسى لمصر كما فى بعض المراجع ، فالفتوحات قاصرة على الفتوحات الإسلامية دون سواها) أنظر: ساويرس: ج١ ، ص ٨٥ ، الأنبا يوساب: ص ٤٩ ، السنكسار القبطى اليعقوبى ، ج٢ ، ص ١٤٣. أنظر أيضاً: قاموس آباء الكنيسة وقديسيها، ص ١٧٣. وكذلك:

المسيحيون على اختلاف مذاهبهم من أقباط وملكانيين يرقبون حروب هرقل ضد الفرس ، بقلوب خاشعة واجفة. فلما انهزم الفرس ، وتم استعادة القدس وعاد الصليب المقدس ، أعلن المسيحيون على اختلاف نحلهم ، الفرح والسرور بما جرى من النصر وأظهروا أيضا سرورهم بما حل باليهود من نقمة واشتركوا جميعا فى التوبة تكفيرا عن هذا الذنب^(١). وكانت هذه لحظة ذهبية ، لو اغتمموها لأدت إلى وفاق واتحاد دائم. وفطن هرقل إلى هذا ، غير أنه لم يدرك أن مذهبه الذى حاول به التوفيق ، قد يعارضه أهل مصر ، فإذا أصروا على رفضه ، فلن يسع هرقل إلا أن يفرض مذهبه عليهم فرضاً.

وبالفعل ، فقد كرس الإمبراطور البيزنطى هرقل (٦١٠-٦٤١ م) كل طاقاته لإلزام الكنيسة لقبطية بقبول قرارات مجمع خلقيدونية^(٢) الذى نادى بطبيعتين للسيد المسيح: إلهية

MUNIER, H., PRÉCIS DE L'HISTOIRE D'EGYPTE, t. II, P. I, P. 67; AMELINEAU, E., ETUDE SUR LE CHRISTIANISME EN EGYPTE AU=SEPTIEME SIÈCLE, PARIS, 1887, PP. 39-40; MASPERO, J., HISTOIRE DES PATRIARCHES D'ALEXANDRIE, PARIS, 1923, P. 328; FLICHE, A., & MARTIN, V., HISTOIRE DE L' EGLISE, PARIS, 1937-1944, t. V, P. 83; BRÉHIER, L., VIE ET MORT DE BYZANCE, PARIS, 1969, P. 54; OSTROGORSKY, G., HISTOIRE DE L' ETAT BYZANTIN, TRAD. J. GOUILLARD, PARIS, 1977, PP. 130-131, VASILIEV, A. A., HISTOIRE DE L' EMPIRE BYZANTIN, TRAD. P. BRODIN & A. BOURGUINA, PARIS, 1932, t. I, P. 259. TREADGOLD, W., A HISTORY OF THE BYZANTINE STATE AND SOCIETY, CALIFORNIA, 1997, PP. 291-293.

(١) ساويرس: ج١ ، ص ٨٣ ، كتاب السنكسار: ج١، ص ٢٤٩.٢٤٨ ، الأنبا يوساب: ص ٤٨. أنظر أيضاً:

GUETTÉE, V., HISTOIRE DE L' EGLISE, PARIS, 1806, t. II, PP. 419-420.

(٢) فى سنة ٤٥١م ، انعقد المجمع المسكونى الرابع فى خلقيدونية ، وأكد فيه رجال الأكليروس المجتمعون أنم للمسيح طبيعتين: بشرية وإلهية. وبهذا أدبنت تعاليم الإسكندرية المونوفيزية (مذهب الطبيعة الواحدة) على أنها غير أرثوذكسية. وترتب على قرارات مجمع خلقيدونية نتائج خطيرة ، إذ نشب الخلاف على الزعامة والصدارة بين كنيسة القسطنطينية وكنيسة روما من جهة ، وبين كنيسة القسطنطينية وكنائس الإسكندرية وإنطاكية والقدس من جهة أخرى. فلقد عارضت الكنائس الشرقية فى مصر وبلاد الشام وفلسطين قرارات مجمع خلقيدونية ، مما جعل الصراع المذهبى بين أتباع الطبيعة الواحدة . السائد فى المقاطعات الشرقية ، وأتباع الطبيعتين . السائد فى القسطنطينية ، النقطة التى تركزت حولها الخلافات الكنيسة والسياسية فى الإمبراطورية البيزنطية حتى مطلع القرن الثامن الميلادى. وكان هذا الخلاف المذهبى ، وسيلة للتعبير عن الميول الوطنيين لسكان مصر والشام وفلسطين ، وعن رغبتهم فى التحرر من السيطرة البيزنطية ، بل والانفصال عن جسد الإمبراطورية البيزنطيين ، مما سهل على

وإنسانية ، بينما تمسك مسيحيو مصر والسريان والأرمن بالطبيعة الواحدة التي تضم وحدة الطبيعتين دون انفصال ولا امتزاج ولا اختلاط بينهما .

إزاء ذلك الفشل ، كلف هرقل سرجيوس SERGUIUS بطريك القسطنطينية وكيرس CYRUS أسقف فاسيس PHASAS بأرمينية الكبرى . الواقعة في لازيك LAZIQUE على البحر الأسود في الشرق^(١). وبعض أساقفة الإمبراطورية البيزنطية بأن يضعوا سنة ٦٣٨ م منشورا يسمونه " الإكتاز " ECTHESIS أى " مشروع الاتحاد " ^(٢) ، لا يذكرون فيه اسم المجمع الخلقيدونى الذى يبغضه المصريون ، بل يقررون فيه أن للمسيح " مشيئة واحدة " . كان هدف هرقل من ذلك ، توحيد المذاهب فى جميع أصقاع الإمبراطورية البيزنطية ، وفى مصر على وجه الخصوص . وقد أعلن بدعته الجديدة دون استشارة البطريرك بنيامين أو أخذ رأيه ، ولم يقف على رأى المصريين إذ لم يدرك أن المذهب الذى حاول جمع القلوب حوله ، يرفضه المصريون ، ولم يعرف أنه يرتكب خطأ كبيرا إذا حاول أن يرغمهم عليه ويجبرهم على قبوله ؛ مما أدى إلى عدم نجاح المذهب الجديد فى مصر^(٣). فما كان من هرقل أن عين كيرس CYRUS بطريك ملكانيا وواليا على مصر فى آن واحد ، فجمع بين يديه السلطتين الدينية والمدنية ، وأصبح ذا سلطان مطلق على البلاد المصرية كما وكله بجباية الخراج ، والنهوض بمهمة " مشروع الاتحاد " . ويعد هذا الإجراء من أشد الأخطاء خطورة ، إذ شهر كيرس . الذى

الفاتحين المسلمين فتح هذه البلدان . للتفاصيل أنظر : فايز نجيب إسكندر : أرمينية بين البيزنطية والخلفاء الراشدين ، ص ٨٦ . ٨٧ ، حاشية رقم ٩٥ .

(1) MASPERO, J. HISTOIRE DES PATRIARCHES D' ALEXANDRIE DEPUIS LA MORT DE L'EMPEREUR ANASTASE JUSQU'A LA RECONCILIATION DES ÉGLISES JACOBITES (518-616), PARIS, 1923, P. 339, M. 2.

(2) ROUILLARD, PP. 235-236; MASPERO, P. 371; ENCYCLOPÉDIE DES SCIENCES RELIGIEUSE, NEW YORK, 1960, t. IX, PP. 331-333; DVORNIK, F., HISTOIRE DES CONCILES, PARIS, 1962, PP. 50-52.

أنظر أيضاً: رأفت عبد الحميد وطارق منصور: مصر فى العصر البيزنطى ٢٨٤ - ٦٤١ م . القاهرة ٢٠٠٣ . ص ١٧٨ .

(3) MASPERO, P. 325; ROUILLARD, PP. 235-236; MUNIER, PP. 68, 92,

عرف فيما بعد باسم المقوقس . شهر حربا عوانا على المصريين فى عقيدتهم ومذهبهم^(١) . إزاء ذلك ، أخذ البابا بنيامين فى تدبير أمور الكنيسة وجمع رجال الإكليروس ، وحضهم على الثبات على عقيدتهم ، وكتب إلى سائر الأساقفة يأمرهم بالاختفاء فى الجبال والصحارى إلى أن يرفع الله عنهم هذه المحنة . وكان اختفاء بنيامين فى نفس الوقت الذى جاء فيه كيرس إلى الإسكندرية ، كذلك تشرذ الإكليروس المصرى فزعين .

وبعدما أعد عدته ، سار بنيامين من الإسكندرية تحت جنح الظلام لا يصحبه إلا رفيقان ، وخرج من المدينة من الباب الغربى قاصدا مريوط ومدينة القديس مينا العجايبى^(٢) . وبعد أن صلى فى كنيسة الكبرى ، واستراح قليلا من عناء السفر ، مضى إلى جبل برونج^(٣) حتى

(١) ساويرس: ج١ ، ص ٨٥ ، الأتيا يوساب: ص ٤٩ . أنظر أيضاً رأفت عبد الحميد وطارق منصور: ص ١٧٨ . وكذلك: ENCYCLOPÉDIE DES SCIENCES RELIGIEUSES, t. IX, PP. 331-333; MICHEL LE SYRIEN, CHRONIQUE, TRAD, BROSSET, PARIS, 1899, t. II, PP. 402-403; ROUILLARD, P. 235; MASPERO, P. 339.

(٢) اكتظت صحراء مريوط بالعديد من الأديرة الواسعة ، على رأسها دير مارمينا العجايبى ، حيث كانت تقوم مدينة كاملة حول مقبرته وديره وكنيسته التى بناها الإمبراطور أركاديوس (٤٠٨-٣٩٥ م) ARCADIUS فى أواخر القرن الرابع الميلادى ، وذلك بمناسبة شفاء ابنته عند زيارتها لمكان وجود جسد القديس مينا . للتفاصيل عن مريوط وسيرة مارمينا وديره وكنيسته أنظر: رعوف حبيب: الرهينة والديرية فى مصر . القاهرة ١٩٩٩ م . ص ١٢٠ - ١٢٤ ، مينا إسكندر: الشهيد المصرى مارمينا العجايبى . الإسكندرية ١٩٦٣ م . ص ٢١ وما يليها ، ٢٠٩ وما يليها ، ٢٥٢ وما يليها ، باهور لبيب: الآثار القبطية . مقال فى رسالة مارمينا الخامسة . الإسكندرية ١٩٥٤ م . ص ١٠٧ . وكذلك: GLANVILLE, S. R. K., THE LAGACY OF EGYPT, OXFORD, 1957, P 323-327; QUATREMÈRE, E., MÉMOIRES GÉOGRAPHIQUES ET HISTORIQUES SUR L'EGYPTE, PARIS, 1811, t. I, P. 488.

(٣) تطوق منطقة وادى النطرون من الشمال سلسلة تلال تعرف بصحراء أو " جبل برونج " أو " جبل نيتريا " ، وتقع الآن الى الغرب من منتصف الطريق الصحراوى بين مصر والإسكندرية تقريبا ، وتعتبر أقدم المناطق التى هرع إليها المتوحدون منذ فجر العصور المسيحية فى القرنين الثانى والثالث للميلاد . كما أطلق على الأماكن التى التجأت بأطرافه الرهبان وطوائف النساك أسماء أخرى مثل " بريا شيهيت " بمعنى ميزان القلوب أو " بريا الإسقيط " أو " وادى هبيب " ومنطقة سيليا أو خليا أو صحراء التلالى . وكانت تلك المنطقة المتسعة الأرجاء منقسمة الى ثلاثة مراكز هامة للرهبنة . إحداها باسم " تلال نيتريا " NITRIA ، والثانية تعرف باسم القلاى CELIA أو سيليا ، والثالثة وهى " بريا الإسقيط " SCETIS وتبدأ كذلك من ناحية الشمال الى الجنوب مع انحراف بسيط ناحية الشرق . أنظر: رعوف حبيب: الرهينة والديرية فى مصر . القاهرة ١٩٩٩ م ، ص ٥٨٠٥٧ . وكذلك:

أصبح قريبا من " برية شيهيت "(١) بوادى النطرون(٢) فوجد أديرتها خالية من الرهبان ، ثم سار إلى الأهرام ، ثم تركها إلى صعيد مصر حتى بلغ مدينة قوص(٣) ، واختفى فى دير صغير بالصحراء بالقرب من هذه المدينة. وبقى مختفيا فيه إلى مجئ المسلمين وفتح العرب لمصر(٤).

AMÉLINEAU, E., GÉOGRAPHIE DE L' EGYPTE À L' ÉPOQUE COPTE, PARIS, 1893, PP. 319-321.

(١) عن " برية شيهيت " أنظر الحاشية السابقة.

(٢) فى سنة ٥٥١م ، اشتد الاضطهاد المذهبي البيزنطى على أقباط مصر ، فترك البطريرك الإسكندرية وأقام بين رهبان وادى النطرون ، فأصبح الوادى آنذاك مركزاً للكنيسة القبطية تدار منه شئونها. وهناك كان يتم تشييد الأساقفة. كذلك تبلورت فى وادى النطرون طقوس الكنيسة القبطية وأخذت شكلها النهائى. وكان الاتصال سهلا بين أديرة وادى النطرون ومدينة الإسكندرية لوجود طريق يربطها بالعاصمة. وكان الرهبان يذهبون إليها لبيع السلع التى كانوا يصنعونها بأيديهم. أنظر: GLANVILLE, P. 327.

(٣) تقع " مدينة قوص " على الساحل الشرقى من النيل ، على مسافة تقارب ٦٤٥ كم جنوب القاهرة ، وهى من المراكز الهامة فى محافظة قنا. وقد ذكر " أبو المكارم " فى تاريخه عن الكنائس والأديرة فى القرن ١٢ بالوجه القبلى أن مدينة قوص " وتفسيرها الكفن ، كان فيها من يكفن الملوك ، وعليها سوردائر. وهذه المدينة . حسب قولها . بناها قوس بن فقط ليسافر عنها فى الغرب الى الواحات وفى الشرق الى معادن البتر والزمرد والى الحجاز (أنظر: أبو المكارم . ج٢ ، ص ١٠٧) ونستخلص من رواية أبى المكارم أن أهلها اشتهروا بمهارتهم الفائقة فى دفن الموتى وتكفينهم. وقد اختلفت المصادر الإسلامية فى سبب تسميتها. فمن قائل إنها سميت باسم رجل يقال له قوص بن فقط بن أخميم بن سيقاف بن أشمف بن مصر (أنظر: الإدقوى: الطالع السعيد . الجامع لأسماء نجباء الصعيد . نشر سعد محمد حسن . القاهرة ١٩٦٦ . ص ١٣ - ١٤): ومن قائل إنها سميت باسم قوص بن سيقاف بن أشمن بن مصر (أنظر: ابن دقماق: الانتصار بواسطة عقد الأمصار . بولاق ١٣٠٩ هـ . ج٥ ، ص ٢٩). والقول الراجح هو ما ذكره أبو المكارم. للتفاصيل أنظر:

QUATREMÈRE, E., MÉMOIRES GÉOGRAPHIQUES ET HISTORIQUES SUR L'EGYPTE, PARIS, 1811, t. I, PP. 192, 216.

(٤) أبو المكارم: كنائس وأديرة الوجه القبلى، ج ٢ ، ص ١٠٨، تاريخ مصر ليوحنا النقبوسى . ترجمة ودراسة عمر صابر عبد الجليل . القاهرة ٢٠٠٠م ، ص ٢٢٠ ، حاشية ٢ ، ساويرس: ج١ ، ص ٨٥-٨٦ ، السنكسار القبطى اليعقوبى: ج ٢ ، ص ١٤٤-١٤٥ ، كتاب السنكسار: ج ١ ، ص ٢٤٩ - ٢٥٠ ، الأنبا يوساب ، ص ٤٩ . أنظر أيضاً: القمص تادرس يعقوب ملطى: قاموس = آباء الكنيسة وقديسيها ، ج٢ ، ص ١٧٤ ، إپريس حبيب المصرى: السنكسار الجديد ، ج١ ، ص ٣٥٣-٣٥٤ ، يعقوب نخلة روفيلة: تاريخ الأمة القبطية ، ص ٣٥ . وكذلك: ROUILLARD, PP. 236-237.

لقد تقدم القول بأن الإمبراطور هرقل فكر بعدما استتب له حكم مصر- فى أمر وضع حد للاختلافات الكنسية وتوحيد المذاهب المسيحية فى الشرق ، ووقع اختياره على كيرس CYRUS للنهوض بهذه المهمة.

تحقيقا لغاية إمبراطوره ، تظاهر كيرس فى أول الأمر أنه جاء ليلقى سلاما فى الكنيسة ، وجعل يبين للناس المذهب الجديد مذهب المونوتيلية^(١) MONOTHELISME - أى مذهب المشيئة الواحدة . الذى أراد به هرقل إزالة ما أثاره مجمع خلقيدونية من الشقاق والنزاع المستمر بين الشعب المصرى^(٢) ، كما سبق أن ذكرنا.

ولقد تعزز الميل عند هرقل إلى اتحاد المونوفيزيين مع الكنيسة الأرثوذكسية الجامعة بطريقة ترضى الجميع. وعاوناه فى هذه الفكرة سرجيوس SERGIUS بطريرك القسطنطينية (٦١٠-٦٣٨م) ، وهو شامى الأصل ، ومن أبوين يعقوبيين بحسب رواية المؤرخ البيزنطى ثيوفانس^(٣) THEOPHANES.

والأساس العقائدى الأصلى لهذه الحركة التوحيدية الناشئة هى ما استعمل عند المونوفيزيين الإسكندرانيين من قولهم " فعل واحد أو إرادة واحدة " أو بالأحرى مشيئة واحدة للمسيح . أى أن هذا المذهب يجمع بين ما يعتقد الروم الملكانيين وما يتمسك به المصريون ، لأنه يتضمن مشيئة واحدة للسيد المسيح مع وجود طبيعتى " اللاهوت والناسوت فيه " . غير أن

(١) للتفاصيل عن " المونوتيلية " MONOTHÉLISME أنظر :

HÉFÈLÉ LECLERCQ, HISTOIRE DES CONCILES, LIVRE XVI, CHAP. I, t. III, PP. 317-336, DVORNIK, PP. 50-53; GRUMEL, V., RECHERCHES SUR L'HISTOIRE DU MONOTHÉLISME, ECHOS D'ORIENT XXVII – XXIX, 1928, 1930.

(2) MASPERO, P. 339.

(٣) Theophanes, Chronographia, in c.s.h.b., P. 507.

الإسكندرى بأنه " عمل تدبيرى " من أجل توحيد المونوفيزيين مع الكنيسة الملكانية. للتفاصيل أنظر :

Mansi, J. D., Sacrorum conciliorum novaet amplissima collectio, Austria, 1860, t. XI, Col. 532-533.

الغزو الفارسي لمصر قطع كل مجال للبحث أو التعليم عن المشيئة الواحدة فى المسيح. أما الفتح الإسلامى ، فقد أوقف إلى حين حركة المونوتيلية أيضا^(١).

ولقد رسمت لنا " سيرة الأنبا شنودة " رئيس المتوحدين ، التى قام بنشرها العالم الفرنسى " أميلينو " M. E. AMELINEAU صورة واضحة عن حوادث الاضطهاد والانقلاب العظيم الذى شهدته مصر آنذاك. جاء فيها:

" ... بعد قليل ، ينصرف الفرس عن مصر ، ثم يقوم الدجال^(٢) ANTECHRIST ويدخل إلى ملك الروم ويتولى من قبله رئاسة الأمراء والأساقفة ، ويدخل إلى مصر ويعمل أعمالا كثيرة ويستولى على مصر وأعمالها ، ويبنى الخنادق والحصون ، ويأمر أن تبنى أسوار المدن التى فى البرارى والقفار ، ويخرب الشرق والغرب ، ثم أنه يطارد الراعى رئيس الأساقفة بالإسكندرية المتولى على المسيحيين القاطنين بكورة مصر ، ويطرده فى هرب إلى ناحية التيمن TIMAN (تيمان) إلى أن يصل إلى ديرك وهو حزين كئيب ؛ فإذا أبلغ إلى ها هنا ، فإنى أردته وأجلسه على كرسيه دفعة أخرى. وبعد ذلك ، يقوم بنو إسماعيل وبنو عيسو ويطردون المسيحيين والبقية منهم يهتمون أن يسودوا على الأرض كلها ويملكوها ويبنوا الهيكل الذى بأورشليم ؛ فإذا كان هذا ، أعلم أنه قد قرب آخر الزمان وقد دنا "^(٣)

على أية حال ، لما رأى كيرس إخفاقه فى سعيه المتواصل إلى نشر مذهبه الجديد ، صار يعرض على المصريين أحد أمرين: إما قبول مذهب خلقيدونية ، وإما الجلد والقتل. وأعقب ذلك شن غارة الاضطهاد التى استمرت مدة عشر سنوات ، عانى خلالها المصريون أبشع ألوان العذاب حتى جعلت مرارة حكم الفرس الوثنيين سهلة المذاق بجانبها ، إذ كانت حرية

(1) Mansi, T. X1, Col. 532. CF. Hefelé-Leclercq, T. III, P. 426, n. 12.

(٢) وهو الاسم المعتاد للمسيح الدجال

(3) Amélineau, E., Vie de Shenoudi in Mission Archéologique Francaise, Paris 1889, t. IV, I, PP. 340-341; Fragments Coptes, P. 405

العبادة مكفولة لهم أثناء إقامتهم بمصر ، بينما سار الحكم البيزنطى على نقيض ذلك ، فلم يبق على حرية معتقدات المصريين وزاد على ذلك قسوة الاضطهاد^(١) .

ولقد شمل الاضطهاد جميع أنحاء البلاد وفى جملتها الأديرة الناشئة والأصقاع البعيدة. وكان حظ من يأبى من السكان الرهبان والعلمانيين أن يتخلى عن مذهبه المونوفيزى أو يقاوم أمر كيرس ، الجلد والتعذيب أو السجن أو الموت. فتشرد الرهبان والكهنة ، واستولى الأساقفة الملكانيين على الكنائس والأبرشيات المصرية^(٢) .

ولقد نشر " أميلينو " M. E. AMELINEAU . العالم الفرنسى المتخصص فى تاريخ مصر آنذاك . قطع قبطية صعيدية تثبت صحة خبر اضطهاد الأديرة والرهبان بمعرفة كيرس^(٣) CYRUS ، وبيئدئ الخبر فيها عندما وصل هذا الأخير إلى جبل القلمون^(٤) لتشر مذهبه ، واضطهاده لمن لم يقبل عليه من الرهبان حيث جاء فيها ما يلى:

" ... لقد بارحوا ، فقال رئيس الدير L'ECONOME " لا أعرف لأى سبب بارحوا
 " . حينئذ أمر بضرب رئيس الدير^(٥) حتى يخبره بكل ما حصل . فأجابه الرئيس بقوله: " لا تضربنى وأنا أخبرك الحقيقة. إن الرجل صموئيل الناسك^(٦) SAMUEL

(١) ساويرس: ج١ ، ص ٨٦٨٥. أنظر أيضاً: Rouillard, p. 236

(٢) ساويرس: ج١ ، ص ٨٥-٨٦؛ الأنبا يوساب: ص ٤٩؛ السنكسار القبطى اليعقوبى: ج٢، ص ١٤٤-١٤٥؛ كتاب السنكسار: ج١، ص ٢٤٩-٢٥٠، أنظر أيضاً:

Munier, PP. 68, 92; Rouillard, P. 236; Amélineau, E., Vie Du Patriarche ISAAC-Histoire du patriarche ISAAC, Texte et Trad., Paris, 1890, P. 12.

(3) Amélineau, 1^{er} Fragment, pp. 363-368

(٤) يقع " جبل القلمون " فى الجزء الجنوبي من الفيوم ، ومعنى الكلمة " الغاب " ومنها اشتقت الكلمة العربية " قلم . " و " دير القلمون " . ويسمى أيضاً دير الأنبا صموئيل القلمونى " . يقع فى منطقة وادى الريان . عند سفح جبل القلمون فى مدخل الفيوم . وقد شيده= صموئيل القلمونى حوالى القرن السابع الميلادى ، وذكر أبو المكارم أن لهذا الدير أطيان كثيرة بالصعيد وشبرا ، وكذا ملاحات وأشجار نخيل . أنظر: أبو المكارم: ج ٢ ، ص ٩٣.٩٢ .

(٥) Amélineau, 1^{er} Fragment T, P. 363. وعن " دير القلمون " أنظر الحاشية السابقة.

(٦) ولد " الأنبا صموئيل المعترف (القلمونى) " فى " دكلوبا " (فوة حالياً) . وكان أبوه كاهنا وأمه امرأة تقية . وكان صموئيل وحيدهما ، ورسم شماساً وهو فى الثانية عشرة من عمره وفى شبابه دخل سلك الرهبنة ، وأنفق أمواله فى

L'ASCETE عمل للرهبان موعظة طويلة لامك فيها ودعاك مجدفا ويهوديا خلقيدونيا وكافرا غير مستحق أن تقدر بصفتك بطريك ، وغير مستحق لشركتك بأى نوع ، ولهذا السبب أصغى الرهبان لكلامه وذهبوا " . فلما سمع الكافر هذا الكلام ، غضب غضبا شديدا ، وصار يعرض شفتيه من شدة غضبه ، ثم ابتداء يلعن رئيس الدير والدير والرهبان . وعقب ذلك ، رجع من سكة أخرى^(١) ، ولم يحضر للجبل لهذا اليوم ؛ وبعد هذه الحادثة ، رجع الاخوة بسلام إلى الدير .

أما من جهة المقوقس KAUKHIOS البطريرك الكاذب -PSEUDO- ARCHEVEQUE فإنه صار حاقدا لحين وصوله لمدينة الفيوم ، فقد أحضر خداما ورجالا عارفين البلد ، لكي يأتوا له بالقديس أنبا صموئيل APA SAMUEL مغلول اليدين وراء ظهره ، وفى عنقه طوق حديد ، ويدفعوه أمامهم مثل لص ، فوصلوا إلى الدير TOPOS^(٢) وأخذوه . أما هو ، فكان يمشى متهللا بالرب قائلا : " ولعل الله سبحانه وتعالى يجعل دمي يسفك اليوم من أجل اسم المسيح " . ولهذا ابتداء بثتم^(٣) المقوقس بحرية تامة قائلا : " بدون شك أنه سيفعل ما وعد به منذ قليل " . فلما أحضره العسكر أمام المقوقس ، ورأى الكافر رجل الله ، امتلأ حنقا وأمر العسكر أن يضربوه حتى يسيل دمه مثل الماء .

ثم بعد ذلك قال له " أنت يا صموئيل الناسك الكافر ، قل لى من رسمك إيغومانسا^(٤) HEGOUMENE على هذا الدير ، ومن أمرك أن تغرى الرهبان ليس

بناء كنيسة فخمة ثم أصبح " أرشيدياكون " أى رئيس الشماسة وسلمه والده مقاليد الكنيسة . وبعد ذلك قصد إلى الصحراء وبدأ حياته الرهبانية فى دير الأنبا مكارى ، وتعلم لناسك شيخ اسمه أغاثون للتفاصيل أنظر : كتاب السنكسار ، ج١ ، ص ١٨٣-١٨١ ؛ السنكسار القبطى البيعوبى ، ج٢ ، ص ٢٥٢٣ . وكذلك :

Amélineau, Fragments Coptes, PP. 397-398.

(1) Amélineau, p. 364.

(٢) الـ " تويوس " Topos يقصد به دير وبه كنسية . أنظر . Amélineau, P. 365, n.1.

(3) Amélineau, p. 365.

(٤) " الإيغومانس " Hégoumène أى رئيس الدير

فقط على لعنى بل أيضا ولعن إيماني " فأجابه القديس أنبا صموئيل قائلا: " إنه من الجيد إطاعة الله وقديسه البطريك أنبا بنيامين APA BENJAMIN أولى من الإطاعة لك ولتعليمك^(١) الشيطاني يا ابن إبليس ويا أيها المسيح الدجال ANTECHRIST". حينئذ أمر بضرب القديس أنبا صموئيل على فمه قائلا:

إن المجد الذي يعطيه لك الناس بصفة ناسك ينفخك ، لكن أنا الذي سوف أعلمك وأرشدك للتكلم بالباطل ، لأنك لم تكرمنى بصفة كوني بطريحا ، ولم ترعنى أيضا أنا وسلطاني بصفتي عاملا على خراج مصر " فأجابه القديس أنبا صموئيل قائلا: " إن الشيطان MASTIMA^(٢) كان أيضا بوظيفة عامل ، وله سلطان على الملائكة ، لكن تكبره وعدم أمانته إنما هما اللذان جعلاه غريبا عن مجد الله^(٣) وملائكته. وأنت أيضا أيها الخلفيدوني الغاش ، إيمانك نجس ، وأنت ملعون أكثر من الشيطان وجنوده! "

فلما سمع المقوقس ذلك ، امتلأ حقدا ضد القديس ، وأشار إلى العسكر أن يجلدوه إلى حد الموت. قصارى القول ، فإن الكافر حاول قتل القديس ، وكاد يتم له ذلك ، لولا أن قضاة مدينة الفيوم خلصوه من بين يديه. ولما رأى صموئيل نجا من شره ، أمر بطرده من جبل النقلون^(٤) NEKLONE^(٥) ."

(1) Amélineau, p. 366.

(٢) كلمة المقصود بها " عدو الله " أى الشيطان أنظر: Amélineau, P. 367, n.1.

(3) Amélineau, P. 367.

(4) Amélineau, P. 368.

(٥) " جبل النقلون" يقع جنوب غرب مدينة الفيوم. أما دير النقلون ويقال له دير الخشبة ودير غيريال الملك فهو يقع تحت مغارة فى الجبل الذى يقال له طارف الفيوم قرب عزبة قلمشاة. وهذه المغارة تعرف بمظلة يعقوب ؛ ويقال إن يعقوب عليه السلام ، لما قدم مصر كان يستظل بها. وجبل النقلون يطل على بلدين يقال لهما أطفيح شيلا وشلا. ويملا الماء لهذا الدير من بحر المنهى ومن تحت دير سدمنت. ولهذا الدير عيد يجتمع فيه نصارى الفيوم وغيرهم ، وهو على السكة التى تنزل إلى الفيوم ، ولا يسلكها إلا القليل من المسافرين. أنظر: المقرئى: الخطط. بولاق ١٢٧٠ هـ . ج١، ص ٣١٤.٣١٣؛ أبو المكارم: ما كتبه الأجانب والمؤرخون عن الكنائس والأديرة - إعداد الأنبا صموئيل . ج٤ ، ص ٣١. أبو المكارم: الكنائس والأديرة فى القرن ١٢ بالوجه القبلى . إعداد الأنبا صموئيل . ص ٩١ .

هكذا يعد النص السابق دليلاً قاطعاً على الاضطهاد الذي عانى منه المصريون من جهة ، ومن جهة أخرى يؤكد النص أن المقوقس والى الخراج هو نفس كيرس CYRUS البطريك الملكانى. وفى هذا ما يبرئ المصريين من نسبة هذا الطاغى إليهم.

وكان سعى كيرس الخلقيدونى متواصلاً بكل همّة للبحث عن البابا بنيامين ، ولذلك كان البطريك ينتقل من دير لآخر من الأديرة الحصينة. وبعد ما اختفى بنيامين فى دير الأنبا شنودة المعروف بالدير الأبيض بسوهاج^(١) ، التجأ إلى جبال صحراء قوص ، حيث عاش فى مغاورها البعيدة عن المدن وطرق المواصلات فى دير صغير فى البرية حتى انقضت عشر سنوات فلم يتمكن كيرس من الوصول إليه^(٢). فما كان منه أن قبض على أخيه مينا. ثم أمر جنده بتعذيبه وإذاقته أشد ألوان العذاب. فأوقدوا المشاعل وسلطت نارها على جسمه ، فأخذ يحترق " حتى سال دهنه من جانبه إلى الأرض " على حد قول ساويرس بن المقفع. ومع ذلك لم يتزعزع عن إيمانه ، ولم يعترف بمخباً أخيه بنيامين. وتحمل اللهب فى صمت تام دون أن يلفظ بكلمة واحدة ، فاستثار صمته غضب كيرس أكثر فأكثر ، فأمر بخلع أسنانه وأن يضعوه على الفور داخل زكية مملوءة رملاً ويلقوا به فى البحر فمات غرقاً.^(٣) وهكذا كان مينا أول شهيد نكل به كيرس.

(١) "بيعد" الدير الأبيض " عن مدينة سوهاج بحوالى ثمانية كيلومترات. وقد شيد أغلبه من الحجر الجيرى ، لذا سُمى بالدير الأبيض ، ويقال أن الأنبا شنودة الأخمينى (٤٣٠-٤٥١ م) وهو مؤسس المسيحية القبطية ، وأعجب شخصية أخرجها القبط فى أى عصر من عصورهم الطويلة ، يقال إنه شيد الدير الأبيض حوالى القرن الرابع. للتفاصيل عن الدير والأنبا شنودة أنظر: رعوف حبيب: الرهينة والديرية فى مصر، ص ١٧٥-١٩٧؛ مراد كامل ، القبط فى ركب الحضارة ، ص ١٨٩-١٩١. الفصل الثالث من رسالة مارمينا الخامسة عشر . القاهرة ١٩٩٥ م.

(٢) ساويرس: ج ١ ، ص ٨٦٨٥ ، أبو المكارم: ج ٢ ، ص ١٠٥ . ١٠٦ ؛ كتاب السنكسار القبطى اليعقوبى: ج ٢ ، ص ١٤١ ؛ كتاب السنكسار: ج ١ ، ص ٢٥٠ ؛ الأنبا يوساب: ص ٤٩. أنظر أيضاً: إيريس حبيب المصرى: السنكسار الجديد، ج ١ ، ص ٣٥٣. وكذلك:

Duchesne, L., L'Eglise Au VI Siécle, Paris, 1925, PP. 413-414; Rouillard, P. 237

(٣) ساويرس: ج ١ : ص ٨٦ ؛ السنكسار القبطى اليعقوبى: ج ٢ ، ص ١١٥ ؛ كتاب السنكسار: ج ١ ، ص ٢٥٠ ؛ الأنبا يوساب: ص ٤٩. أنظر أيضاً: قاموس آباء الكنيسة وقديسيها ، ج ٢ ، ص ١٧٥ ؛ السنكسار الجديد ، ج ١ ، ص ٣٥٣. وكذلك: Maspero, p. 371; Rouillard, pp. 236-237

وثقلت وطأة حكم كيرس ، فاضطر بعض الضعاف الذين لم يستطيعوا الهجرة والاختفاء من أمامه إلى الخضوع وقبول المذهب الجديد " المونوتيلية " مذهب عدوهم ، ومن بينهم كيرس أسقف نقيوس وبقطر أسقف الفيوم ، وعدد آخر يعد على الأصابع.

أما الذين لم يستطيعوا الهرب ولم يقبلوا التغيير ، فلجأوا إلى التظاهر بغير ما يبطنونه^(١). وبقيت جالية كبيرة من المصريين المتمسكين بمذهبهم المونوفيزي تعيش في الإسكندرية ، يدير شؤونها قس وحيد من أهل مريوط يدعى " أغاثون " (٢) AGATHON. وكان هذا القس يبذل جهوداً شاقة في سبيل إحياء الشعائر الدينية بين المصريين ، فكان في أثناء شدة الاضطهاد يتزياً بزى العلمانيين في مدينة الإسكندرية ويطوف في الليل يثبت المونوفيزيين على إيمانهم المذهبي ويقضى حوائجهم ، ويقدم شعائر العبادة لإخوانه المصريين ، وكان أثناء النهار يحمل قفة فيها آلات النجارين ، ويتظاهر بأنه نجار حتى لا يعترضه المخالفون ، ويجد بذلك السبيل إلى دخول دور المونوفيزيين ومنازلهم. وظل هكذا حتى الفتح الإسلامي لمصر. فكافأه المصريون على هذه التضحيات الجسيمة والمخاطر الكبيرة بأن أولته تقنتها ، ورفعته إلى الكرسي البابوي بعد وفاة البابا بنيامين. وكان قد قرىه البابا إلى مجلسه واتخذة ولداً وتلميذاً له ، وشمله برعايته ، وأقامه مساعداً له في إدارة شؤون الكنيسة المصرية في إبان شيخوخته^(٣).

هكذا ، منذ مجمع خلقيدونية المنعقد في سنة ٤٥١م إلى سنة ٦٤١م ، لم تذق مصر طعم السلام الداخلي ، إذ كانت في صراعٍ دائمٍ مع الذين حكموها من ولاية بيزنطيين ، فكانوا

(١) ساويرس: ج١، ص ٨٦. أنظر أيضاً: Rouillard, p. 237; Duchesne, p. 413

(٢) ولد " أغاثون " في مريوط ، ودرس الكتاب المقدس وسير الآباء ، ثم ذهب إلى الإسكندرية ليتعلم في مدرستها: وبعد تخرجه منها أصبح كاهناً. وبعد زوال السيادة البيزنطية على مصر ، اتخذه البابا بنيامين الأول سكرتيراً خاصاً له ، ثم رشحه ليخلفه ، فأصبح البابا التاسع والثلاثين. وفي عهد بطريركيته ، انتهز فرصة سياسية التسامح التي اتبعها عمرو بن العاص ، وأعاد بناء كنيسة مار مرقس بالإسكندرية. كما شيد في مواجهة الكنيسة بيتاً فسيحاً للغرباء والمحتاجين ، يبيتون فيه. للتفاصيل أنظر: كتاب السنكسار ، ج١ ، ص ٨٠-٨٢ ؛ السنكسار القبطي اليعقوبي ، ج ١ ، ص ٦٩٦٨.

(٣) ساويرس: ج١، ص ٩١؛ كتاب السنكسار: ج١، ص ٨١ وكذلك: Rouillard, p. 237

يتخادلون أحياناً وينتصرون أخرى. وكانت تكبد هؤلاء الحكام الخلقيدونيين ثمناً غالياً فى سبيل الحكم الذى يبسطونه عليها. فالمصريون قاسوا الآلام والأوجاع والتشريد و التقتيل فى سبيل ذلك. والملاحظ أن زيادة الاضطهاد لم تفت فى عضد أكثرية المصريين ، بل إنها على العكس ، زادتهم تماسكاً بمذهبهم المونوفيزى ؛ غير أن شدة التعسف كانت سبباً قوياً فى القضاء على كل أمل فى إعادة السلام بين البيزنطيين والمصريين ، بل جعلت هوة الخلاف أكثر اتساعاً ، واستمرت العداوة فى ازدياد ، وتأصلت الكراهية للسيادة البيزنطية ومذهبها الملكانى. ومع ذلك ، لم يلجأ المصريون إلى خيانة البلاد.

وهكذا أصر المصريون على الاحتفاظ بعقيدتهم الأرثوذكسية على المذهب المونوفيزى ، والتمسك باستقلالهم الدينى. فلم يرهبوا الاستشهاد وتحمل كافة ألوان العذاب ، ورضوا بأن يدفعوا الثمن فى أنفة واعتزاز. ولم يقابلوا هذا الاستبداد فى صمت وذلة ، ولكنهم تمردوا أكثر من مرة ، وأعلنوا للمستعمرين البيزنطيين سخطهم عليهم واستخفافهم بوسائلهم الجهنمية. فبدت مصر فى القرن السابع الميلادى فى صورة قائمة موجعة: ففى ناحية منها وقف الطغاة المستبدون من عملاء القسطنطينية ، وفى الناحية الأخرى وقف المصريون صامدين رافعى الرؤوس. فكانت النتيجة الحتمية لهذه الصورة القائمة الموجة انتشار الفوضى والاضطراب.

ولقد زودنا المؤرخ الفرنسى المحدث هنرى مونيه Henri Munier بصورة حية لأحوال مصر آنذاك جاء فيها أن المصريين كانوا يعرفون أنهم الشعب الذى نال كهنته أكبر نصيب من الألم زوداً عن الإيمان ، بسبب تبعيته السياسية للقسطنطينية وتدخلها فى شئونه. فقد كان الشعب المصرى يرى أمامه كل يوم بطش الأباطرة بالبطاركة الذين كانوا كثيراً ما يفضلون النفى على امتيازات كرامتهم العظمى ، كذلك واجهوا قرارات الحرمان الكنسية التى كانت تصدرها فى حقهم المجامع الدينية فى محاولة لفرض مذهبهم الدينى. وكانت الأحكام الغاشمة الصادرة عن القسطنطينية متكررة بلا انقطاع مستهدفة تنصيب العملاء وفق اختيارهم ليجلسوا على عرش القديس مرقس. وأدى ذلك بالتالى إلى الصدام والمذابح.⁽¹⁾

(1) Munier, pp. 68, 92.

خلاصة القول فإن الشعب المصرى . بزعامة بطاركته - لم يطمع من الناحية الوطنية إلا بشبه استقلال أساسه حرية العقيدة وفق المذهب الذى يؤمن به ألا وهو المذهب المونوفيزى؛ إضافة إلى خفض الضرائب التى أثقلت كاهله - هكذا كان الحال طوال العصر البيزنطى . وهى السياسة التى سار عليها عمرو بن العاص عندما دخل مصر فاتحاً .

على أية حال ، فى وسط كل هذا القلق والتوتر ، وهذا الاستبداد الذى تقابله الثورات ، ظهر الفاتحون المسلمون على الأبواب . والجدير بالتسجيل أن الأسقف الأرمنى " سيبوس Sébeos " ^(١) ، ذلك المؤرخ الوحيد المعاصر لفتوحات الإسلامية ^(٢) ، وشاهد عيان لفتح المسلمين لبلاد أرمينية ^(٣) ، ذكر فى مصدره أن المسلمين " كلفهم الله عز وجل بمهمة الفتوحات الإسلامية . ^(٤) هذا بينما أورد جيفوند ^(١) Ghémond - المؤرخ الأرمنى المعاصر لأحداث القرن

(١) عن " سيبوس " Sébeos ومصدره " تاريخ هرقل " Histoire d'Heraclius أعددنا كتاباً بعنوان: فايز نجيب إسكندر: المسلمون والبيزنطيون والأرمن فى ضوء كتابات المؤرخ الأرمنى المعاصر سيبوس (١١-٤٠هـ/٦٣٢م - ٦٤٠م) . الطبعة الثانية . بيروت ١٩٩٣م . وقد نشر الدكتور طاهر مصطفى فى جريدة الحياة اللندنية ، يوم السبت ٣ ديسمبر ١٩٩٤م . فى صفحة التراث (ص ٢٠) - ثلاثة أعمدة بعنوان " صفحة من تاريخ الفتوحات الإسلامية لمؤرخ أرمنى عاصر أحداثها مباشرة " ، نشر دراسة تحليلية بناءة وطيبة للغاية عن هذا الكتاب . وعن الأسقف والمؤرخ سيبوس أنظر: فايز نجيب أسكندر: أرمينية بين البيزنطيين والخلفاء الراشدين (١١هـ/٦٦١م) - الإسكندرية ١٩٨٣ . ص ٧٢ ، ٧٩ ، ١٠٠ .

(٢) كان سيبوس شاهد عيان لأحداث القرن الأول الهجرى/القرن السابع الميلادى، إذ عاصر الكثير من الأحداث التى أرخ لها، واستمد بعض أحداث مصنفه من شهود العيان وبعض الأسرى كذلك استمد القليل من مادته التاريخية من بعض المصادر الخطية التى لم يعاصر أحداثها؛ لذا كان مصنفه مصدراً ثميناً لخلفائه، فانقضوا عليه انقضاضاً لينقلوا عنه المادة التاريخية الثمينة التى لم يعاصروا أحداثها. للتفاصيل أنظر: فايز نجيب أسكندر: المسلمون والبيزنطيون والأرمن، ص ٢٠١٤ .

(٣) فايز نجيب أسكندر: أرمينية بين البيزنطيين والخلفاء الراشدين، ص ٣٠٢٩ .

(٤) فايز نجيب أسكندر: المسلمون والبيزنطيون والأرمن، ص ١٦ . وقد جاء فى هذا المصدر المعاصر لظهور الإسلام وبداية انطلاق الفاتحين المسلمين ما يلى:

A cette époque, il y avait un des enfants d'ismael du nom de Mahomet, un marchand .. comme l'ordre venait D'en Haut, ils se rallierent tous"

الثامن الميلادي/ القرن الثاني الهجرى^(٢). أن الفاتحين المسلمين كانوا ينطلقون في فتوحاتهم " كالحية الطائرة"^(٣) في حين يذكر المؤرخ المحدث جستون فييت Gaston Wiet - المستشرق الفرنسى المعروف ، والأمين الأسبق لمكتبة دار الآثار العربية بالقاهرة . أن المسلمين لم يواجهوا شعوباً متعلقة بحكامها ، ولا قادة حربيين فى استطاعتهم أن يستغلوا موارد البلاد الخاضعة لهم بحكمة ، ولولا ذلك لاضطر القواد أمثال عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وغيرهما أن يعودوا القهقرى لفورهم إلى صحاريهم.^(٤)

والذى يهمنى فى موضوع الفتح الإسلامى لمصر هو تتبع علاقة عمرو بن العاص بالبطريك بنيامين ، البطريك المنتخب من الشعب المصرى والذى كان لا يزال هارباً فى دير فى أعالي الصعيد ، إذ اضطر هو وأساقفته إلى مغادرة عواصمهم هرباً من بطش كيرس . كم سبق أن ذكرنا . وبعد أن استتبّت الأمور للفاتحين المسلمين وأصبح المصريون فى أمان من الخوف على عقيدتهم الدينية لتمتعهم بالحرية فى ظل السيادة الإسلامية، خاصة وأن عمرو بن العاص كان عادلاً فى حكمه ، رؤوفاً برعيته ، متسامحاً حتى أنه أثار دهشة المصريين وإعجابهم ، فقد أورد حنا النقيوسى فى هذا الصدد أنه " لم يأخذ شيئاً من أموال الكنائس ، كما أنه لم ينهبها ، بل حماها طول مدة حكومته"^(٥). لذا ، دانت له مصر ، واستتب له الحكم فيها

" فى تلك الفترة ، ظهر شخص يدعى " محمد " . صلى الله عليه وسلم . وكان تأجراً من بنى إسماعيل عليه السلام .. وقد أمره الله بتوحيد المسلمين ، والانطلاق فى فتوح ربوع العالم " .

(١) عن " جيفوند " Ghévonnd ومصدره " تاريخ الحروب وفتوحات العرب فى أرمينية " Histoire des Guerres et des conquetes des Arabes en Arménie أعددنا كتاباً بعنوان "الفتوحات الإسلامية لأرمينية (١١) - ٤٠هـ/٦٣٢-٦٦١م) فى ضوء كتابات المؤرخ الأرمنى جيونوند - الإسكندرية ١٩٨٣ .

(٢) للتفاصيل أنظر: فايز نجيب إسكندر: المرجع السابق، ص ٣-١٣ .

(٣) فايز نجيب إسكندر: المرجع السابق، ص ٣٦؛ نجاة محمد الطلبي: ما بعد بلاط الشهداء - مملكة الفرنجة والفتوحات الإسلامية فى جنوب بلاد الغال - اليمن ٢٠٠١م - ص ٥٠ .

(4) Wiet, G. précis de L'histoire d'Egypte, t. II, P. II, P. 115.

(٥) كامل صالح نخلة: كتاب تاريخ النقيوسى . مجلة نهضة الكنائس . عدد ٧ ، و ٨ يوليو أغسطس ١٩٤٩م . ص ١٥٠ ؛ عمر صابر عبد الجليل: تاريخ مصر ليوحنا النقيوسى . رؤية قبطية للفتح الإسلامى . القاهرة ٢٠٠٠م . ص ٢٢٠ .

خاصة وأنه تعهد للمصريين بأن يدع لهم حرية العبادة وممارسة شعائرهم الدينية وفق مذهبهم وحماية كنائسهم^(١)؛ كما يدع لهم حرية التصرف فى شئونهم القضائية والإدارية. ولم يكتف عمرو بذلك ، بل أقام بعضاً منهم مديريين لمختلف الجهات ، ولم يطالبهم بغير الجزية ، إذ ألغى الضرائب الفادحة التى كان أباطرة الإمبراطورية البيزنطية قد فرضوها على المصريين بغير رحمة.^(٢)

على أية حال ، كان زعيم المصريين المتحدث بلسانهم آنذاك رجلاً من أقباط مصر يدعى الدوق سانوثيوس ، أى الرئيس شنودة لكونه من بين قادة الجيش البيزنطى ، وكان مونوفيزى المذهب ، مشهوراً له بالاستقامة وحسن الراى والحزم ، إضافة إلى كونه مخلصاً للبابا بنيامين. فلما استقر الفتح الإسلامى فى الإسكندرية ، قره عمرو بن العاص إلى مجلسه ، فانتهر سانوثيوس فرصة انتعاش الكنيسة المصرية بعد اختناقها من شدة المحن والاضطهادات التى حلت بها مدة عشر سنوات ، وأخذ يمهّد السبيل لإعادة البطريك بنيامين إلى كرسيه بأن عرّف عمرو بن العاص بأسباب اختفائه^(٣) وحقيقة مقامه العظيم فى نفوس رعيته فرجا عمرو منه أن يبعث برسله إلى البابا الشريد ليطلب إليه أن يعود إلى مقر بطريركيته آمناً مطمئناً وكتب له أماناً وأقر عودته بناء على هذه الوساطة ولقد فرح المصريون بهذا التصريح ، وسارع رسل سانوثيوس إلى الصعيد ليبلغوا بطريركهم بما جرى إلا أن سانوثيوس نفسه كان يجهل مقره.^(٤) لذا كتب عمرو بن العاص أمر الأمان إلى أعمال مصر كتاباً يقول فيه:

(1) Vansleb., Nouvelle Relation d'un voyage Fait en Egypte Paris, 1658, P. 237.

(٢) القمص تادرس يعقوب الملطى: قاموس آباء الكنيسة وقديسيها، ج٢، ص ١٧٦. أنظر أيضاً:

Wiet, t. II, P. II, P. 129

(٣) ساويرس: ج ١ ، ص ٨٨. أنظر أيضاً: Duchesne, P. 425.

(٤) ساويرس: ج ١ ، ص ٨٨ ، كتاب السنكسار: ج ١ ، ص ٢٥٠؛ السنكسار القبطى اليعقوبى: ج ١ ، ص ١٤٥.

أنظر أيضاً: Duchesne, P. 425.

" الموضوع الذى فيه بنيامين بطرك النصارى القبط له العهد والأمان والسلامة
من الله فليحضر آمناً مطمئناً ، ويدبر حال بيعته وسياسة طائفته ".^(١)

وخرج لمقابلة عمرو بن العاص ألوف الرهبان المقيمين فى وادى النطرون ، ودانوا له بالطاعة ، فأعطاهم عهد الأمان الذى ظل محفوظاً بدير الأنبا مقاريوس بهذا الوادى ؛^(٢) إذا أورد المقرئى أن عمرو بن العاص بعد أن فتح مصر والإسكندرية ، خرج إليه من أديرة وادى النطرون سبعون ألف راهب للترحيب به ، وكتب لهم كتاباً بقى عندهم يؤمنهم فيه على أنفسهم وحياتهم وأديرتهم^(٣) ونستخلص من نص المقرئى المبالغة العددية إلا أنها تدل على كثرة عدد رهبان وادى النطرون من ناحية ؛ وسياسة التسامح الدينى التى كان يتمتع بها رهبان الأديرة عامة فى ظل السيادة الإسلامية من ناحية أخرى.

وقد انتشر عهد الأمان الذى أصدره عمرو بن العاص^(٤) حتى بلغ مسامح البطريرك بنيامين ، فعاد من مخبئه ، وعاد إلى الإسكندرية فدخلها دخول الظافرين ، وفرح الناس برجوعه

(١) ساويرس: ج ١ ، ص ٨٨. والجدير بالذكر أن أبا المكارم زدونا بنص مختلف جاء فيه: " فليظهر الشيخ البطريرك مطمانا [هكذا فى الأصل] على نفسه وعلى طائفة القبط جميعهم إلى الديار المصرية وغيرها آمنين على نفوسهم من كل مكروه وتنتمه المكتوب " أنظر: أبو المكارم: الكنائس والأديرة فى القرن "١٢" بالوجه القبلى ، ج ٢ ، ص ١٠٦. وكذلك: السنكسار القبطى البيعوى ، ج ٢ ، ص ١٤٥ ؛ كتاب السنكسار: ج ١ ، ص ٢٥٠. علماً بأن السنكسارات التى استخدمتها فى البحث لم تذكر نص الأمان.

(٢) أورد العالم الفرنسى أميلينو Amélineau المتخصص فى تاريخ مصر فى العصر المسيحى أن نص خطاب الأمان محفوظ فى دير الأنبا مكارىوس أنظر:

Amélineau, E., Histoire des monastères de la basse-Egypte, Paris, 1894, P. XXXII.

(٣) المقرئى: الخطط . يولاق ١٢٧٠هـ . ج ٢ ، ص ٥٠٧. وكذلك: عمرطوسون: وادى النطرون ورهبانه وأديرتة ومختصر تاريخ البطارقة . مذيل بكتاب تاريخ الأديرة البحرية . الإسكندرية ١٣٥٤هـ / ١٩٣٥م.. ص ٤٠.

(٤) اتسمت البنود فى الشروط التى كان يعرضها الفاتحون المسلمون على سكان البلاد المفتوحة بالبعد تماماً عن الإجحاف مقارنة بالبنود المفروضة من قبل البيزنطيين ونتج عن ذلك الترحيب بالفاتحين المسلمين دون مقاومتهم، خاصة وأن سكان البلدان المفتوحة كانوا يعلمون تماماً أن المسلمين سوف يتركوا لهم حرية العقيدة والعبادة وممارسة الشعائر الدينية، فلا إكراه فى الدين للتفاصيل أنظر: فايز نجيب إسكندر: الفتوحات الإسلامية لأرمينية، ص ٩٠، حاشية رقم ١٢١.

فرحاً عظيماً. وبلغت مدة غيابه عن الكرسي البطريركي السكندري ثلاثة عشر عاماً ، عشرة منها تحت الحكم البيزنطي ، وثلاثة في ظل السيادة الإسلامية.^(١)

ولما ظهر بنيامين في بابليون في وسط شعبه حظى بترحيبهم الحار وأعلموا بمجيئه سانوثيوس ، فهم ليستقبله ويبلغ بكل ما جرى بينه وبين عمرو ، ثم اتفق معه على الموعد الموافق لمقابلة القائد المسلم ، وأخذ له منه الأمان ، وأمر عمرو بإحضاره إليه بكرامة وإعزاز ومحبة واستقبله بما يليق بمقامه من الحفاوة والتكريم. فلما التقى الرجلان تحادثا ملياً في جميع الشؤون الخاصة بمصر ورفاهيتها ، فبادر عمرو باستشارة البطريرك اليعقوبي في أحسن طريقة يتمكن بها من إدارة البلاد ، وسأله عن أنسب موعد لجباية الضرائب ، وكانت طلعة البابا بريئة تلوح عليه سيما الوقار والجلال والهيبة ، وكان عذب المنطق ، في تودة ورزانة ، الأمر الذي كان له عظيم الوقع في نفس عمرو لأنه حينما رآه أكرمه وقال لأصحابه بأنه لم ير في بلد من البلاد التي فتحها المسلمون رجلاً مثله بين رجال الدين حسب قول ساويرس. فأجابه بنيامين بخطبة بليغة شكره فيها على حفاوته به ، تلقاها منه عمرو بالبشر والقبول: وقال له جميع بيعك ورجالك اضبطهم ودبر أحوالهم. وأقامه أميراً على قومه ، وثبته في كرسي ولاية الدين المسيحي في مصر.^(٢)

ولقد كان لعودة البطريرك اليعقوبي بنيامين أثر عظيم في حل عقدة مذهب المصريين. فخوفاً من اضطهاد كيرس ، اعتنق البعض المذهب الخلقيدوني. ولا شك أن الخروج من الدين أو المذهب كرهاً أو خوفاً لا يكون في مبدأ أمره حقيقياً. فلما جلس هذا البابا ثانياً على العرش السكندري ، انضم تحت لوائه المصريون ؛ كما جذب إليه أكثر الناس الذي أضلهم الإمبراطور البيزنطي هرقل وكيرس مبعوثه ، فعادوا ثانية إلى اعتناق المذهب المونوفيزي " وعادوا إليه بفرح

(١) ساويرس: ج١ ، ص ٨٨ ؛ السنكسار القبطي اليعقوبي: ج ٢ ، ص ١٤٥ ؛ كتاب السنكسار: ص ٢٥٠؛ تاريخ

الآباء البطارقة ، ص ٥٠ ، أنظر أيضاً: الجريدة النفيسة في تاريخ الكنيسة ، ج ٢ ، ص ٧٧.

(٢) ساويرس: ج١ ، ص ٨٩،٨٨ أنظر أيضاً:

W. Budge, The book of the Saints of the Ethiopian Church, translation of the ethiopic synaxarium, Cambridge, 1928, t. II, P. 472

ونالوا إكليل الاعتراف ". ثم نادى بنيامين المطارنة والأساقفة الذين اتبعوا المذهب الخلقيدوني أن يعودوا إلى مذهبهم المونوفيزي ، فلبى أكثرهم نداء البابا.^(١)

ثم إن اهتمام عمرو بن العاص بالبعاقبة وصل مداه أيام البطريرك بنيامين ، إذ تركهم يستولون على معظم الكنائس الملكانية وكذا الأديرة. وبذلك جعلهم بينون الآمال الكبار على المستقبل ، مما حدا بالأسقف المؤرخ " ساويرس بن المقفع " أن يصف شعورهم هذا بقوله:
" كانت الشعوب فرحين مثل العجول الصغار إذا حُلَّ رباطهم، وأُطْلِفُوا على ألبان أمهاتهم ".^(٢)

وكان ساويرس على حق في وصفه ، ذلك لأن المصريين لم يعاملوا بهذه المعاملة اللينة منذ أمد بعيد إذ عانوا الأمرين في ظل الغزو الفارسي والسيادة البيزنطية. أضف إلى ذلك أن المسلمين أثناء ولاية عمرو بن العاص ، لم يحاولوا أن يضغطوا على المصريين ليعتقوا الإسلام ولم يضطهدوهم ، وهذا التسامح الديني ليس بغريب عليهم ، فقد أكده المؤرخ الأرمني سيبوس ، المعاصر لأحداث النصف الأول من القرن الأول الهجري ، إذ أورد في مصدره أن المسلمين حين فتحوا موطنه الأصلي أرمينية . لم يفرضوا الإسلام على الأرمن بالقوة^(٣) تمشياً مع ما جاء في القرآن الكريم " لا إكراه في الدين "^(٤). كذلك اعترفت بهذا التسامح الديني الذي خطى به الأرمن في ظل السيادة الإسلامية على بلادهم ، دون أن ينعموا بذلك في عهد السيادة الفارسية أو البيزنطية ، المؤرخة الفرنسية برنديت مرتان هيزار Bernadette Martin-Hisard أستاذة العصور الوسطى بجامعة باريس I. ففي بحث لها بعنوان " السيادة الإسلامية والحريات الأرمنية في الفترة من القرن السابع الميلادي إلى القرن التاسع " ذكرت أن الحفريات الأثرية التي

(١) ساويرس: ج ١ ، ص ٨٩ ؛ السنكسار القبطي اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ١٤٦. أنظر أيضاً: قاموس آباء الكنيسة وقديسيها ، ص ١٧٦.

(٢) ساويرس: ج ١ ، ص ٩٠.

(٣) فايز نجيب إسكندر: المسلمون والبيزنطيون والأرمن في ضوء كتابات المؤرخ الأرمني المعاصر سيبوس (١١٠٤/٥٤٠١١م) ص ١٦.

(٤) القرآن الكريم: سورة البقرة، الآية (٢٥٦).

أجريت في دوين^(١) Dwin . عاصمة أرمينية آنذاك . أكدت أن المسلمين عاملوا الأرمن بالحسنى ، ولم يكرهوهم على اعتناق الإسلام. ودلت على صحة قولها هذا ، بما شهدته أرمينية من ازدهار واضح في بناء الكنائس في ظل السيادة الإسلامية واستخلصت . نتيجة هذا الدليل المادى . حرية الأرمن المطلقة في ممارسة شعائرهم الدينية وفق مذهبهم ، وتشبيد كنائسهم التي شهدت ازدهاراً معمارياً لم تشهده من قبل ، دون أية قيود مفروضة من قبل المسلمين. وعلقت برنديت على ذلك قائلة إن المسلمين الأول التزموا بهذا التسامح في تعاملهم مع أهل الذمة في كافة البلدان المفتوحة.^(٢)

وفي مصر ، سجل الرحالة " فانسلب " Vansleb الذى قام بزيارة مصر في أواخر القرن السابع عشر الميلادى ، أنه رأى على جدران الكنيسة المعلقة ، عهداً كتبه عمرو بن العاص بيده لحماية تلك الكنيسة ، ويلعن من يسعى من المسلمين إلى حرمان القبط منها ، إلا أنه يؤخذ عليه قوله إن القبط دفعوا لعمرو فدية عن تلك الكتب.^(٣)

على أية حال ، لما درس عمرو بن العاص حالة مصر ، أدرك أنه من المستحيل عليه أن يجيب الضرائب دون معاونة أقباطها. فكتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب يقوله له ، لما كان المسلمون لا يعرفون البلاد المصرية معرفة تامة ، فإنهم لا يستطيعون حصر المبالغ التي يمكن جمعها من الضرائب ، وأنه استخدم لهذا الغرض قبطياً قديراً ونزيهاً ، على أن يحل غيره محله عندما يعرف حالة البلاد جيداً.

(١) " دوين " Dwin في المصادر الأرمينية ، " دبيل " في المصادر الإسلامية. وهي مدينة بأرمينية ، تتاخم أران. للتفاصيل أنظر: فايز نجيب اسكندر: المرجع السابق ، ص ٩٦ ، حاشية رقم ٢٠٢ ، الفتوحات الإسلامية لأرمينية في ضوء كتابات المؤرخ الأرمنى جيفوندى ، ص ٩٥-٩٦ ، حاشية رقم ١٤٥ ؛ أرمينية بين البيزنطيين والأتراك السلاجقة (١٠٧١.١٠٠٠م / ٤٦٣.٣٩٢هـ) في منتصف أريستاكييس اللستيفرتى . الإسكندرية ١٩٨٣ . ٢٣١ ، حاشية رقم ٥٥٤ ؛ الحياة الاقتصادية في أرمينية إبان الفتح الإسلامى . القاهرة . ١٩٨٨ . ص ١٧ ، حاشية رقم ٤٩ . الفتوحات الإسلامية لبلاد الكرج (جمهورية جورجيا السوفيتية) . القاهرة ١٩٨٨ . ص ١٢ ، حاشية رقم ٢٧ .

(٢) فايز نجيب إسكندر: المسلمون والبيزنطيون والأرمن ، ص ١٦ ، حاشية رقم ٧ .
(3) Vansleb, Nouvelle Relation d'un voyage fait en Egypte, Paris, 1698, P. 237.

وفكر عمرو بن العاص أيضاً فى إيجاد أداة قد تكفل حسن سير العدالة ، وصرح بمساهمة الوطنيين الأقباط فيها فقسم البلاد إلى عدد من الدوائر ، وعين فى كل دائرة منها قاضياً قبطياً كلفه بفض الخلافات المدنية والدينية لغير المسلمين ، أما إذا كان الخلاف بين قبطى ومسلم ، رُفِعَ الأمر إلى مجلس مكون من قضاة الطرفين وكانت المسائل الجنائية من اختصاص القضاة المسلمين وحدهم.^(١)

ويذكر "ساويرس بن المقفع " أن عمرو بن العاص . قبل قيامه بحملته لفتح الغرب . استقبل البابا بنيامين وقال له: " إذا صليت انت على حتى أمضى إلى المغرب والخمس مدن وأملكها مثل مصر ، وأعود إليك سالماً بسرعة ، فعلت لك كل ما تطلبه منى " فدعا له البابا بنيامين بالتوفيق والنجاح. وبالفعل نجح عمرو فى فتح تلك البلدان ، وبعدها عاد إلى مصر ، واستقر فى القسطنطينية التى كان قد اتخذها عاصمة له.^(٢)

على أنه قبل أن يغادر مصر ، أكد عمرو احترامه للمصريين بأن منح البطريك بنيامين الحق فى بناء الأديرة والكنائس التى كان قد دمرها الفرس. وفرح البابا بهذه المنحة ، وأخذ يتفقد الأبنية ليعرف ما تهدم منها وما تبقى. وقيل وفاته ، دأب على تعليم رعيته ليضمن ضميره ، كذلك سجل القوانين الكنسية والنظم الرهبانية.^(٣)

هكذا حظى البطريك بنيامين بحب الشعب المصرى له ، والتفافه حوله ، ودان له بالولاء الخالص ، فعم السلام الشامل ربوع مصر آنذاك وكان سانوثيوس قد كلف البابا بنيامين ببناء كنيسة على اسم القديس مرقس ، ولكن الأجل لم يفسح له ، إذ توفى فى السابع عشر من يناير سنة ٦٦٢م. وكانت مدة رئاسته على الكنيسة المصرية تسعاً وثلاثين سنة.^(٤)

(1) Amélineau, Fragments Coptes, p. 389; Duchesne, PP. 428-429.

أنظر أيضاً: القمص تادرس يعقوب الملطى: قاموس آباء الكنيسة وقديسيها ، ص ١٧٦ .

(٢) ساويرس: ج١، ص ٨٨ .

(٣) ساويرس: ج١، ص ٩٠-٩١ ؛ السنكسار القبطى اليعقوبى، ص ١٤٥؛ كتاب السنكسار ، ص ٢٥٠ . وكذلك

الجريدة النفيسة ، ج ٢ ، ص ٧٨٧٧ ، إيريس حبيب: السنكسار الجديد ، ج ١ ، ص ٣٥٥ .

(٤) ساويرس: ج١ ، ص ٩١ .

هكذا نستخلص من سيرة البطريك بنيامين الأول ، غيرة المصريين آنذاك على استقلال بلادهم ، وتمسكهم بعقيدتهم ومعتقداتهم المذهبية على وجه الخصوص ، وهمتهم دينياً ومدنياً ، رغم الحوادث والحروب والاضطهادات الفارسية والبيزنطية التي حدثت فى تلك المرحلة المتقبلة من تاريخ مصر فسيرة ذلك البطريك تعد صحيفة شرف للمصرين ، سداها الغيرة ، ولحمتها الإخلاص للوطن والدفاع عن العقيدة المسيحية على المذهب المنوفيزى ؛ نستجلى من بين سطورها أحوال مصر الداخلية من ناحية ، والدينية والمذهبية من ناحية أخرى ، وذلك خلال الفترة الممتدة من أواخر عهد السيادة البيزنطية إلى أوائل سنوات الفتح الإسلامى.

واتضح جلياً أيضاً أن المسيحية على المذهب المنوفيرى كانت أداة للتحرر السياسى والتخلص من نير الحكم البيزنطى ؛ إذ وجد المصريون فيها مجالاً ليقظة قوميتهم ، وتعبئة مشاعرهم الوطنية بعد أن انهارت أو كادت تحت نير الضغط البيزنطى. لذا ، أيقظت المسيحية المنوفيزية فى المصريين شعورهم بأنفسهم ، وكان هذا عاملاً هاماً من عوامل سرعة انتشارها وازدياد عدد معتققيها.

لقد حمل بطاركة الإسكندرية عامة راية الجهاد المذهبى ضد الكنيسة المركزية فى القسطنطينية ومذهبها الخلقيدونى ، كما حمل أسلافهم من زعماء الإسكندرية الوثنية راية المقاومة ضد حكومة الإمبراطورية الرومانية. وكانت مؤازرة ومناصر الشعب المصرى لبطاركته . هى فى جوهرها . مؤازرة للحركة القومية ضد السلطات البيزنطية ، بل إن الرهبان المصريين وخاصة فى الصعيد الأعلى وليس فى الإسكندرية فقط ، عملوا على مقاومة الثقافة اليونانية.

ختام القول ، كانت المقاومة المصرية للسيادة البيزنطية فى أساسها ثورة قومية وطنية ، وإن اتخذت شكلاً دينياً.